

## الفصل الثاني

صورة نار الحرب

في الشعر الجاهلي

## النار مخلوق شرير مخيف

كان للنار وجهها الشرير في التصور العربي إلى حد عدها مصدرًا قويًا من مصادر تصورات الإنسان الجاهلي ، من هذه التصورات ما زعموا أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث والتحيل وإخلال السابلة ( ٣٣٠ ) بل عدها الأصل في خلق " الجن " الشيطان " المخلوق الشرير، لدرجة وصفها بصفة شيطانية تتمثل في الجحيم( ٣٣١ ) ويعرض فريزر للريح الشريرة التي كانت تأتي كل شهر في شكل سفينة نارية من المشاعل المتتهبة يقرب لها الناس عذراء ، نقلا عن وصف ابن بطوطة لجزيرة العرب ( ٣٣٢ ) وهذا الوجه كان له انعكاسه المؤثر على حياتهم ، فسيطرت النار على كثير من ممارساتهم معتقدين فيها قوة سحرية فأوقدها في الحلف المقدس وأشهرها بها الغادرين وربما جاءت عباداتهم للأصنام الحجرية ، لان النار لا تقدر على

إحراقها( ٣٣٣ ) وأوقدوها خلف من يكرهون ويخافون شره؛ وهذه التي عرفت بنار الطرد( ٣٣٤ ) .

وعلى هذا الأساس المرعب كانت هيبتها التي جعلتهم يخشونها ، واعتقدوا فيها قوة إلهية عادلة، هذه القوة استخدمت كعقاب للمخالف للأعراف والقوانين ، ومنها مفهوم

(١)- مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي مرجع سابق ح٧ ص ١٤٨

(٣٣١)-انظر النار في التحليل النفسي ٠ بشلار ص ٩٣ ، إبليس للعقاد ص ٤٠ ، ٤٤

الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ٧٦ ، ومروج الذهب للمسعودي ح١ ص ٣٠، ٢٩

البداية والنهاية لابن كثير مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٤ ح١ ص ٥٥

(٣)- الغصن الذهبي جيمس فريزر ترجمة د. أحمد أبو زيد ح١ ص ٤٨٩ ، ٤٩٠

(٤)- المطر في الشعر الجاهلي د. أنور أبو سويلم دار الجيل عمان ١٩٧٨ ص ٩٥ ، ٩٦

(٥)- خزنة الأدب للبغادي ح٧ ص ١٤٨

جهنم " Hell " في الشرق الأوسط ( ٣٣٥ ) وقد فسر البعض طقس السير على النار إنه تطهير وتنقية للمشترت في جريمة لإثبات البراءة ( ٣٣٦ ) .

وهذا الشكل المهيب الرادع للنار استخدم من أقدم العصور لا بتلاء المتهم واختيار براءته على أساس أن النار تعاقب المجرم ، وقد ظهر في المجتمع العربي ما يُعرف بالبشعة وهي طقس مورث في البيئَة من أقدم العصور ( ٣٣٧ )

وقد ذكر الطبري في تفسيره، قصة إسلام نُبُع وتحاكمه إلى النار ( ٣٣٨ ) كما أورد الجاحظ في الحيوان أيضاً عن نار الحلف في اليمن وسدنتها، ووصف طريقة التحالف، ( ٣٣٩ ) إذ وردت نار الحلف في الشعر العربي القديم ( ٣٤٠ ) : منه قول أوس :-

إِذَا اسْتَقْبَلْتَهُ الشَّمْسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ      كَمَا صَدَّ عَنْ نَارِ الْمَهْوَلِ حَالِفٌ

وقال آخر :

حَلَفْتُ بِالْمَلْحِ وَالْجَمْعِ شَهْدُ      وَبِالنَّارِ وَاللَّاتِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ

وقال الكميث :

كَهْوَلَةٍ مَا أَوْقَدَ الْمُحَلْفُونَ      لَدَى الْحَالِفِينَ وَمَا هَوُّوا

-The ency – Americana vol "11" p "242"

(٦)

- Man myth and magic p " 971

(٧)

The new Ency – Britanica vol " 4 " p " 791 وراجع أيضاً

(٨)- النظم العربية المعاصرة د٠ محمود سلام زنتاني ص ٣٨٥

(١)- جامع البيان في تفسير القرآن للطبري مجلد ١١ ص ٩٧

وانظر تاريخ الأمم والملوك للطبري ، دار إحياء التراث بيروت د٠ ت ١٠٠

(٢)- الحيوان للجاحظ ، ح ٥ ص ١٧٣

(٣)- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي مصر ١٩٧٥ ط٤٤٣ ص ٧،٨

(٤)- قد سبق الحديث عن نيران العرب وذكرت المصادر المؤرخة لها في الجزء النظري من البحث

وقال أوس :

حَلَفْتُ بِالْمَلْحِ وَبِالرَّمَادِ وَالِدِّ  
أَرِوَاللَّهِ تَسْلَمُ الحَلْفَةَ  
حَتَّى يَظِلَّ الجَوَادُ مُعْفِرًا  
وَيُخْصَبُ النَّبْلُ غُرَّةَ الدَّرَقَةِ

ومن هنا بزغت نار الحرب على أنها معاقبة للمعتدى رادعة للشرا"الخصم" يسלטونها على من يطغى ووردت نار الحرب في أغلب كتب الأخبار والأدب التي تحدثت عن نيران العرب(٣٤١) إذ كانت العرب توقد نيرانا أمام الجيوش في الحرب وقد أثار القرآن هذه الظاهرة عن اليهود وقتنهم في سورة المائدة فقال تعالى : " كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله" (٣٤٢) وقد ذهب المفسرون إلى الدلالة المجازية لنار الحرب بأنها الفتن والوقيعه والإعداد لها(٣٤٣).

بهذا الشكل الذي اكتسبته من طبيعتها أصبحت النار أسطورة في حياة العرب انعكست عنها هذه الممارسات التي كان الإنسان البدائي يستعين بها لجلب الخير ودفع الشر، (٣٤٤)، ومن هذا الإدراك الأسطوري الذي منه ولدت الصورة الشعرية التي ليست في جوهرها سواه(٣٤٥) فالفن في المجتمعات البدائية كان مرتبطاً عادة بالسحر

---

(٥)- سورة المائدة آية ٦٤

(٦)- راجع التفاسير السابق ذكرها في هذه الآية .

(١)- الصورة الأدبية د٠مصطفى ناصف ص٨

(٢)- المرجع نفسه ص٧، وراجع الأساطير والخرافات عند العرب د٠محمد عبدالمعين خان- دار الحداثة بيروت

١٩٨٢ص٣٢٠

والممارسات، لأنه كان ذا وظيفة مقدسة حتى أنه لم يوجد فن إلا وكان دينياً (٣٤٦) وكل التجارب الإنسانية للبدائيين تمثل نسيجاً من خيوط هي اللغة والأسطورة والدين والفن، وأشار توماس مونر إلى أنها: "أجزاء من عالم رمزي يخرج الشاعر من العالم المادي ليعيش فيه عند تجاربه (٣٤٧)".

ويشير د. أحمد كمال زكى إلى ضرورة الربط بين المجاز أو الرمز، بأسطورة مجهولة المعالم لتفسير ما يقع الشاعر الجاهلي في ترديده (٣٤٨).

ومن هنا يصبح واجب الناقد أن يتعدى البحث عن جماليات العمل الفني وتفسيره، بإيجاد الرابطة بينه وبين صاحبه وأحوال مجتمعه إلى البحث عن الماضي الثقافي والاجتماعي والإنساني لهذا العمل الإبداعي (٣٤٩).

وبصدد استخدام صورة النار في رسم لوحة فنية للحرب في الشعر الجاهلي، يحاول الباحث تحديد هذه الرابطة وتحليل هذه الاستخدامات الفنية عند هؤلاء الشعراء.

---

(٣)- بحث في علم الجمال جان بار تليمي ترجمة د. أنور عبد العزيز راجعه د. نظمي لوقا مطبعة نهضة مصر ١٩٧٠ ص ٥٧٣

(٤)- التطور في الفنون توماس مونرو ترجمة محمد أبو ريذة وآخرين

الهيئة العربية للتأليف والنشر القاهرة ١٩٧١ ج ١ ص ٣٤٥

(٥)- مجلة فصول مقال د. أحمد زكى التفسير الأسطوري للشعر القديم عدد ٣ إبريل ١٩٨١

(٦)- المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي د. عبد الفتاح محمد أحمد ص ٣٧

لقد تمدد احتزَم النار في نفوس البشر من خلال شدة حرارتها وهياج ألسنتها وبشاعة آثارها على الأجسام إلى خوف ورعب - وكما ذكر - ربطت بالانتقام فهي التي يدعى بها على الأعداء، وتوقد في أثر من يكرهون وذكر أن العرب تدعو على العدو فيقولون: "أبعد الله دار، وأوقدوا نارا في أثره" وقال الشاعر:

وَجَمَّةٌ أَقْوَامٍ حَمَلَتْ وَوَلَمْ أَكُنْ      كَمَوْقِدِ نَارٍ إِتْرَهُمْ لِلتَّكْدُمِ ( ٣٥٠ )

كان لطبيعة بلاد العرب وتركيبتهم الثقافية والدينية دور كبير في تجلي هذه المشاعر تجاه النار حتى ظهرت في أجلى صورها متجسدة في الحرب التي كانت تعنى دمارا وخرابا، فهي ذات أنياب عُصَل تعرك الناس كعرك الرحي بثقالها. وقد شبه نصر بن يسار الحرب بالنار صراحة "قائلاً" ( ٣٥١ )

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمَيْضَ جَمْرٍ      وَيُوثِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامٌ

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودَيْنِ تُرْكِي      وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوْهَاهَا الْكَلَامُ

فَإِنَّ لَمْ يُطْفِئْهَا عُقْلَاءُ قَوْمِي      يَكُونُ وَقُودَهَا جِثْتُ وَهَامُ

ورغم هذا الشاعر أموي إلا أن الصورة لديه تمثل امتداداً للصورة النارية للحرب في الفكر العربي على مر التاريخ .

(١)- عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي تحقيق د.محمد زغول سلام منشأة المعارف الإسكندرية د.٥٠ ص ٧٥ وراجع لسان العرب مادة "نور"

(٢)- عيون الأخبار لابن قتيبة دار الكتاب العربي مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ ح ١ ص ١٢٧، ١٢٨

والشاعر هنا يريد التحذير، فالحرب كالنار بتشبيه مركب بشكل تمثيلي، فالنار تنتج عن احتكاك عودين ( ٣٥٢ ) والحرب تنتج مثلها مع ملاحظة العلاقة بين الفعل " يوشك " في البيت الأول "يوشك أن يكون له ضرام" والشطر الثاني من البيت الثاني " وأنَّ الحَرْبَ أولها الكلام " فالفعل " يوشك " يعنى أن الوميض ينتظر أقلَّ شيء " النفخة " كي يشتعل، وكذلك الحرب يشعلها أقل شيء "الكلام" كما نلاحظ المصدر المشعل للوميض والحرب، وما يبدو من خلف هذه الصورة .

وهو " الفم " ( بالنفخ مع الوميض ، وبالكلام مع الحرب ) إذن الحرب والنار متشابهتان حتى في مصدر تحريكهما من الثبات .

وإذا تُركت النار ترعى تكون لها نتائج دمار في شكل وقود تغتذى عليه وأيضاً الحرب لها وقود مثل النار ولكن هو أجساد الضحايا ، وهذا الخلط والتداخل بين صورتى الحرب والنار يعكس رؤية الشاعر نحو الحرب والنار بشكل تشاؤمي فهما متماثلتان في الفتك والتدمير .

وصورة النار لا تفارق وصف الحرب في أغلب مواضع الحديث عنها ، فعمرو بن معديكرب يصفها بأنها بعد إغرائها كالحسناء أول الأمر تصبح عجوزاً شمطاءً محلوقمة الرأس رائحتها نتنة لا يستطيع أحد تقبيلها أو الاقتراب منها ليشم رائحتها ، وهذه أبشع الصور وأشدّها تنفيراً ولا يفوته ذكر خاصيات النار وأفعالها قائلاً :

---

(٣)- راجع تحليل بلوغ الأرب لللوسى ج١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

-The ency – Americana vol "11" p "242"

وراجع

- The new Ency – Britannica vol " 4 " p " 788"

الْحَرْبُ أَوْلُ مَا تَكُونُ فُتَيَّةً      تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جُهُولٍ

حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضَرَامَهَا      عَادَتْ عَجُوزٌ غَيْرُ ذَاتِ خَلِيلٍ

شَمَطَاءَ جَزَّتْ رَأْسَهَا وَتَنَكَّرَتْ      مَكْرَهَةً " لِلشَّمِّ وَالتَّقْيِيلِ ( ٣٥٣ )

وتتداخل هنا الصورة المقززة المنفرة للمرأة الشمطاء مع الصورة المرعبة المخيفة للنار المشتعلة لتجسيد صورة الحرب إلى جوار أن الشاعر زيادة في التنفير يشير إلى من تسعى الحرب إليه فهي تسعى لكل جهول " فلا يندفع بها ولا يصاحبها إلا الجاهل ، ومما يؤكد جهل هذا الجاهل ، أن هذه الحرب تفنية وقد لا تفنى غيره .

" وعادت عجوزٌ غير ذات خليل "

ومن أكثر الصور شهرة في مجال الحرب صورة زهير التي يقوم فيها بتكثيف التشبيهات المختلفة المتزحمة إلى حد إخفاء بعضها البعض كما يشير لذلك الدكتور طه حسين . ( ٣٥٤ )  
( يقول زهير :

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ      وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ

مَتَى تَبْعَتْوَهَا تَبْعَتْوَهَا دَمِيمَةً      وَتَضُرُّ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا فَتَضُرُّمِ

فَتَعْرُكُكُمْ عِرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا      وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تَجْمَلُ فَتُنْنِمِ

(١)- راجع العقد الفردي لابن عبد ربه الأندلسي تحقيق د. مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية

بيروت ١٩٨٨ ج١ ص ٨٦

وراجع الشعر والشعراء لابن قتيبة ج١ ص ٣٧٣

الصورة في الشعر العربي د. علي البطل ص٦٤ ، ١٥٩

(٢)- في الأدب الجاهلي للدكتور طه حسين ص ٢٨٧

كَأَحْمَرِ عَادٍ ثَمِ تُرْضِعُ فَتَقْفَطِمِ

فَتُنْتَجِ لَكُمْ غِلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ

قَرَى بِالْعَرَاقِ مِنْ قَفِيرٍ وَدَرِهِمْ ( ٣٥٥ )

فَنُعَلِّلِ لَكُمْ مَا لَا تَعْلُ لِأَهْلِهَا

هذا التراكم في صورة الحرب باستخدام صور النار وغيرها ، من الصور يجسد هدف الشاعر، وهو التنفير والتحذير من الدخول في الحرب ، وتركيزنا هنا على صورة النار ومدى توظيفها الفني تحت تأثير الشكل الأسطوري البشع لها ، والمتربسب في نفس الشاعر والذي يدل من دون وعى إثناء تحذيره وتنفيره من الحرب .

وإذا تأملنا الفعلين " تضر " و " تضرم " نجد علاقة بينهما ، فهما فعلا منسوبان للحرب إنها " تضر " وتضر أي تغتر أو " لهجت " ومنه ضرى الكلب بالصيد إذا تطعمه بلحمه ودمه ( ٣٥٦ )

" وتضرم " أي تشتعل وتلتهب ( ٣٥٧ ) والفعال ينسبان للنار وفيهما معاني الحركة والنشاط والانتقام .

وعلى المستوى الصوتي لوحظ التجانس بين ( تضر - ضريتموها - تضرم ) حيث تتوالى أصوات الضاد والراء مع التشديد أحيانا ، مما يعكس إحساساً بالصراع والعنف والاحتكاك ، كالإحساس المنعكس عند رؤية فعل النار وهي تضرم في الحطب وتأكل كل أخضر ويابس ، مما يساعد على تشكيل صورة تقرب المعنى المجهول الذي يريد الشاعر إن

---

راجع ديوان زهير بن أبي سلمى ص ١٨ ، وراجع بشرح الديوان لابن يحيى الشيباني طبعة الهيئة العامة للكتاب ( ١ ) ص ٣١ وراجع تعليق الدكتور طه حسين " في الأدب الجاهلي " ص ٢٨٧

( ٢ ) راجع لسان العرب مادة " ضري " ح ٣ ص ٢٥٨٣

( ٣ ) نفسه مادة " تضرم " ح ٣ ص ٢٥٨٢ ، ٢٥٨٣ .

يرسمه للحرب ، باستخدام أفعال وخواص النار ذات الوجه القاسي الذي سبق الحديث عنه في الخيال العربي .

ويريد زهير أن يُحمّل هذه المسؤولية للإنسان فيضع الشرط "إذا" أي الذي يضربها هو الإنسان وهو سبب مباشر في هذه النتائج .

لذا تأكل الحرب مشعلها وتعركهم كعرك الرحي أو هي الأنتى البغيضة التي تلد غلمان أشأم مشوهين فتبقى آثارها على مدى الأيام

ويكرر زهير التحذير من الحرب قائلاً:

إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مُضِرَّةٌ      ضُرُوسٌ تُهَرِّ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عَصَلٌ

قُضَاعِيَّةٌ أَوْ أُحْثِنَا مُضِرِّيَّةٌ      يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطْبُ وَالْجَدَلُ (٣٥٨)

فهي أيضاً "سيئة الخلق" ضررس " يكرهها الناس ويهرون منها وأنيابها معوجة – لاحظ الصورة البشعة لمخلوق يفتح فاه على الناس وله أنياب عوجاء تخيف كل من يراها – ولم يترك صورة النار في رسم هذه اللوحة فهي متأججة تأكل الحطب الجز في حافتها فكيف به في وسطها؟!

وتلاحظ صفة " الأمومة ذات الخصوبة المكروهة للحرب ، بالعلاقة بين الفعل " لقيحت" في هذه الأبيات " وتنتج لكم غلمان أشأم" في الأبيات السابقة فتتضافر كل هذه الأوصاف بمساعدة صور النار لترسم الصورة المنفرة للحرب، ومن صور زهير في الحرب أيضاً. أبيات ينصح فيها لبنى سليم حينما بلغه أنهم يدبرون للإغارة على غطفان :

فَيَقُولُ : حُدُوا حَطْلَكُمْ يَا آلَ عِكْرَمَ وَانْكُرُوا

٢- ديوان زهير دار صادر بيروت د.ت.ص ٦.

أَوْ صِرْنَا وَالرَّحْمُ بِالْغَيْبِ تُذَكِّرُ

حُدُّوا حَزَّكُمْ مِنْ وُدِّنَا إِنَّ قُرْبِنَا

إِذَا ضَرَبْتَنَا الْحَرْبُ نَارٌ تُسَعِّرُ

وَأَنَا وَإِيَّاكُمْ إِلَى مَا نَسُومُكُمْ

لَمَثَلَانَ أَوْ أَنْتُمْ إِلَى الصَّلْحِ أَفْقَرُ (٣٥٩)

يلاحظ هنا في البيت الثاني تصريحه بأن الحرب نار تُسَعِّرُ وتُضرس الناس وهي نفس المواصفات التي أشار إليها في المقطوعات السابقة .

ومما تجدر الإشارة إليه تطوير صورة نار الحرب لدى زهير في هذه المقطوعة ففاعلها مجهول " تُسَعِّرُ " وهذا البناء يفيد أن الفاعل ليس الناس وهذا خلاف ما أورده في المقطوعة قبل السابقة " متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ، وتضر إذا ضربتموها فنُضرم " فالنار الآن عند زهير تُسَعِّرُ وهذا يجلب خطورة أكثر على السامعين ، إذا هم جهلوا مصدر استعارها فهي غامضة المصدر. ويكثر تكرار صورة الحرب بأنيابها العصل محملة بصور النار واضحة لدى كثير من الشعراء ( ٣٦٠ )

---

وراجع تعليق د. على البطل في كتاب الصورة في الشعر العربي ص ٦٣

٢- ديوان زهير ص ٣١

(١)- راجع ديوان أوس بن حجر تحقيق د. محمد يوسف نجم دار صادر بيروت ١٩٧٩ ص ٨٣ ، ٨٤ ،  
وشعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو دار المشرق بيروت د. ت ص ٢٠٧  
وديوان دريد بن الصمة تحقيق د. عمر عبد الرسول دار المعارف مصر ١٩٨٥ ص ١٢٢  
وديوان الأعشى دار صادر بيروت د. ت ص ٦١

وعند أوس ترك الحرب في لوحة محملة بصورة النار أيضا، ولكن القارئ يستشعر في صورة أوس أن هذه النار غير النار التي قصدها زهير وغيره أنفأ، فهي عند أوس محمودة إلى حد ما لأنها نار دفاع، ولذلك فهو يلمس فيها الفخر ويصفها بالأفعال " تحسُّ وتسفَعُ " فيقول: ( ٣٦١ )

تَكْفِنَا الأَعْدَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ      لِيَنْتَرِعُوا عِرْقَاتِنَا ثُمَّ يَرْتَعُوا

فَمَا جَبُّوا أَنَا نَسُدُّ عَلَيْهِمْ      وَكِنْ لِقَوَّ نَارًا تُحَسُّ وَتَسْفَعُ

فحربهم للدفاع عن مقدرات حياتهم ، نار مقدسة يفتخر بها ويذكرها دون ذم لها وهو يعاقب بها كما كانت من قديم تستخدم كعنصر عقاب وتعذيب منذ كان الكهنة يستخدمونها في المحاكمات بالتعذيب( ٣٦٢ )

هذا وقد سبق الحديث عن النار ككائن قوى ومهيب ومستخدم في المحاكمة والعقاب عند كثير من الأمم من خلال المصادر ودوائر المعارف ، وهو ما عرف عند العرب بنار الطرد أو المتمثلة في الجحيم التي يعاقب بها المجرمون .

وعنترة بن شداد يذكر تلك النار في الحرب التي يعاقب بها من اعتدى فيقول( ٣٦٣ )

فَجَاءُوا عَارِضًا بَرْدًا وَجُنُتَا      حَرِيْقًا فِي غَرِيْفٍ نَبِي ضِرَامٍ

ويطالعنا النابغة بعد هذه الصور الشريرة للنار بصورة مشثومة لها ضررها الخرافي ليس على الإنسان فحسب ، بل يمتد أثرها إلى الكواكب في السماء ، ويضطرب فيها النور على الأرض

(٢) - ديوان أوس بن حجر تحقيق د.محمد يوسف نجم ص ٥٧ ، ٥٨

(٣) - The new Ency – Britannica vol " 4 " p " 791"

(٤) - ديوان عنترة بن شداد دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٠ ص ٤٣ .

، وكأن كارثة تقع بوقوع هذه الحرب ، حيث يختل نظام الكون وتظهر الكواكب مع الشمس في ذات الوقت ولا يتميز فيها الضوء عن الظلام فيقول : ( ٣٦٤ )

إِنِّي لِأَحْسَى عَلَيْكُمْ أَنَّ يَكُونَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ بَعْضَائِهِمْ يَوْمَ كَأَيَّامِ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَالشَّمْسُ طَالِعَةً لَا النُّورُ نُوْرٌ وَلَا الإِظْلَامُ إِظْلَامٌ

وهذه صورة بشعة للحرب يجسدها الشاعر مستخدماً أيضاً العناصر الضوئية التي تمثل جزءاً مهماً في حياة العربي ، واضطرابها يعنى دمار الكون ، وقد فسّر ابن عبد ربه الأندلسي هذا البيت ممثلاً بما تقوله العامة : أريته النجوم وسط النهار" ( ٣٦٥ )  
وصورة الكواكب ، والشمس والنور والظلام جاءت كلها متضافرة في وقت واحد لترسم لوحة الحدث الجلل الذي يظهره الشاعر وكأنه " نهاية العالم " الذي يراه الشاعر مستقراً في انتظام أجرامه السماوية وانتظام الليل والنهار .

والحرب نار " بذاتها وصفاتها " يفتخر العربي ويمدح بدخولها

وقد ورد ذلك في كثير من أشعارهم بأن الحرب نار تشب وتلهب وتسعر ولها لون كخاصية الحصان الأشقر ، ويرى الجاحظ تعبيرات منها : " النار شبت ، والحرب تشب شبا" ( ٣٦٦ )

(1) راجع ديوان النابغة تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٨٥ ص ٨٣

(2) العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي تحقيق مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية بيروت

١٩٨٧ - ١ ص ٨٧ .

(3) الحيوان للجاحظ ح ٥ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

وسمى الأعشى الحرب ناراً صراحة في قوله ( ٣٦٧ )

لَمَّا التَقِينَا كَشَفْنَا عَنْ جَمَاجِمِنَا لِيَعْلَمُوا أَنَّنَا بَكَرٌ فَيَنْصَرِفُوا

قَالُوا : البقية والهندي يَحْصُدُهُمْ وَلَا بَقِيَّةَ إِلَّا النَّارُ فَانْكَشَفُوا

فهو يسمى الحرب في هذا الموقف والتي تسعر على الخصوم فتأكل فرسانهم ناراً ، وتحمّل

الحرب أفعال النار عند عامر بن الطفيل : ( ٣٦٨ )

يُرِيدُونَ لِلْحَرْبِ تَكَرَّارَهَا إِذَا أَلْهَبَتْ لَهَبًا تُسْعِرُ

ونلاحظ الأفعال " ألهمت " ، " تسعر " وهي من أفعال النار حيث تسند إلى الحرب في صدر

البيت ، إذن الحرب نار عنده لأنها تستعير من النار أفعالها وصفاتها .

وينتج عنها عند أوس بن حجر لهب يلف نخيل الخصوم وزرعهم : ( ٣٦٩ )

إِنْ كَانَ ظَلَى فِي ابْنِ هِنْدٍ صَادِقًا لَمْ يَحْقِنُوهَا فِي السَّقَاءِ الْأَوْفَرِ

حَتَّى يُلَفَّ نَخِيلَهُمْ وَزُرْعَهُمْ لَهَبٌ كَنَاصِيَةِ الْحِصَانِ الْأَشْقَرِ

(١) ديوان الأعشى - دار صادر بيروت د. ت ص ١١٢

(٢) ديوان عامر بن الطفيل - دار صادر بيروت ١٩٦٣ ص ٦٨

(٣) ديوان أوس بن حجر تحقيق محمد يوسف نجم دار صادر بيروت ١٩٧٩ ط ٣ ص ٤٨

هذا اللهب الناتج عن نار الحرب أصفر ولامع - وهذا لون النار - مثل ناصية الحصان الأشقر، ويلاحظ في هذا التشبيه رغم أن المشبه به عنصر من عناصر بيئة الإنسان العربي إلا أنه تشبيه مقلوب ، فالأصل أن يشبه الحصان الأشقر بلهب النار في صُفرتة ولكن كان العكس عند الشاعر، وهذا وارد عند شعراء العرب .

وإذا كان وقع الحرب على النفس شديداً كشدّة النار على الجسد ، فالطبيعة العربية لها دور رئيسي في تأكيد هذا التشابه وتثبيت جوانبه ، بل هي رافد دافق يمد الشاعر العربي بكل ما يدفعه للثورة والانتقام إذا غضب ، فكان العربي يزحم الحياة مجسداً لصورة الطبيعة العربية التي من أهم سماتها العنف والتطرف ، فيوصف الحجاز بأنه حاجز بين الشام واليمن هواؤه حرير وليلة بهور ينحف الأجسام ويخفف الأدمعة<sup>(٣٧٠)</sup> وهى بلاد قحط وجفاف تفرض على العربي الشقاء<sup>(٣٧١)</sup> والإنسان العربي بوصفه من مكونات هذه البيئة فهو يتطرف كما أنها متطرفة ، إنه عنيف إلى حد التهور، وجواد إلى حد التبذير انه يتميز غيظاً<sup>(٣٧٢)</sup> يبدو شديد التعصب شغوفاً بالحرية ذا أفق غير متسع محارباً ميالاً إلى الخصومة<sup>(٣٧٣)</sup>

ويصفهم توماس كارليل، بأنهم طليان الشرق في قوة نفوسهم وشدة حزمهم وقوة إرادتهم، لا يحجم أحدهم أن يقاتل صاحبه بعد إكرامه متى عادت به إليه الفرص<sup>(٣٧٤)</sup>

---

(١) مزوج الذهب ومعادن الجواهر للمسعودي ح ٢ ص ٦١

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ترجمة نبيه فارس ومينير البعلبكي ص ١٤

(٣) الوسطية العربية مذهب وتطبيق د. عبد الحميد إبراهيم ص ٥١

(٤) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي منذر الجنبوري ص ٤٨

(٥) الأبطال توماس كارليل ترجمة محمد السباعي الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ٢٠٠٤ ص ٤٦

ذلك مما جعل ابن خلدون يعد العرب من الأمم الوحشية المحاربة التي جعلت أرنقهم في رماحهم وعلل ذلك لسكنهم بالقفر (٣٧٥).

فالحرب إذن كانت استجابة طبيعية لدوافع نفسية وحياتية، اكتسبها العربي من وحي بيئته واستلهم لها صورة معبرة من وحي البيئة نفسها للتعبير نفس عنها وهى صورة النار بشكل معبر عن الطبيعة الصحراوية الحارة والنفسية المتأججة، لتخرج هذه الزفرات في الحرب التي كانت له شفاءً من الغل . والغضب حتى عدّ الحرب من متع الحياة التي يعيش لها الفتى ويتسابق فيها كالخمر والنساء .  
فيقول طرفه: (٣٧٦)

وَأُولَا ثَلَاثَ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى      وَجِدُّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عُوْدِي

فَمِنْهُنَّ سَبَقِي الْعَادِلَاتِ بِشْرِيَّةِ      كُمَيْتِ مَتَى مَائِعْلُ بِأَلْمَاءِ تُزِيدِ

وَكَرَّرِي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنِبَا      كَسِيدِ الْعُضَى - نَبَّهْتَهُ - الْمُتَوَدِّدِ

وَتَقْصِيرِ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَّجْنِ مُعْجِبٌ      بِنَهْكَتِهِ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمَعْمَدِ

ويفتخر الأسعر الجعفى بملازمة لأهل الحرب ودوام رفعة لهم مستدلا على أنه رجل حرب  
قائلا:

وَإِنَّا رَأَيْتَ مُحَارِبًا وَمُسَالِمًا      فَلْيُبَغِّنِي عِنْدَ الْمُحَارِبِ مِنْ بَغْيِ

(٦) مقدمة ابن خلدون . لابن خلدون المغربي دار العلم بيروت ١٩٨٦ ص ٢٧١ .

(٧) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات، لأبى بكر الانبارى، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف ١٩٦٩

(معلقة طرفه)، والمعلقات العشر بشروح مختارة من الزوزني والثنقيطي وابن النحاس والتبريزي ، مؤسسة الإيمان /

دار الرشيد، بيروت/ دمشق، د.ت، ص ٤١ .

وينقم على من طلب السلام من قومه وإخوته معيرا إياهم بتنازلهم عن كرامتهم بترك الحرب وقبولهم السلام قائلًا :

مَسَحُوا لِحَاهُمْ ثُمَّ قَالُوا سَالِمُوا يَالَيْتِنِي فِي الْقَوْمِ إِذْ مَسَحُوا اللَّحَى (٣٧٧)

فالعربي كان يعود به أبوه على الازدراء بكل ما يبعد عن العنف ، واحتقار المهن اليدوية وفلاحة الأرض والإشادة بكل ما يتطلب الجرأة والشجاعة والمران والمقاومة الجسمية ، فالصيد والاختطاف والحرب شغله الشاغل في الليل والنهار(٣٧٨) والحرب أيضا كانت السبيل لإظهار البأس واستعراض القوة ورد الاعتبار أمام القبائل (٣٧٩) لذا نرى دريد بن الصُّمة يفخر بخوض نار الحرب قائلًا :

أَعَادِلْ كَمْ مِنْ نَارِ حَرْبٍ غَشِيَتْهَا وَكَمْ لِي مِنْ يَوْمٍ أَعْرَمَ مُحَجَّلٍ (٣٨٠)

ويفتخر حاتم الطائي باصطلائه الحرب وهي تلتهب كالنار وتستمر فيقول: (٣٨١)

وغمرة حَرْبٍ لَيْسَ فِيهَا هَوَادَةٌ يَكُونُ صُدُورَ الْمَشْرِفَى جَسُورَهَا

صَبْرًا لَهَا فِي تَهْكُهَا وَمَصَامِهَا بِأَسْيَافِنَا حَتَّى يَبُوحَ سَعِيرُهَا

شَهِدَتْ وَعَوَانَا أَمِيمَةٌ أَنْنَا بَنُو الْحَرْبِ تَصَلَاهَا إِذَا اشْتَدَّ نُورُهَا

(١) الأصمعيات تحقيق أحمد محمد شاكر ، عبدالسلام هارون، دار المعارف مصر ١٩٧٩ ط ٥ ص ١٦٢ وانظر

الوحيات "الحماسة الصغرى" لأبي تميم الطائي تعليق احمد محمد شاكر دار المعارف مصر ١٩٦٣ ص ٤٤ ، ٤٥

(٢) تاريخ الأدب العربي بلاشير ترجمة د. إبراهيم الكيلاني دار الفكر د.ت ص ٣٧

(٣) رمز الماء في الأدب الجاهلي د. ثناء أنس الوجود مكتبة الشعب القاهرة د.ت ص ٢٧١

(٤) ديوان دريد بن الصمة ص ١٥٣ ، وانظر الوحيات "الحماسة الصغرى" ص ٢٧٣

(١) ديوان حاتم الطائي دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٢ ص ٦٤

ونلاحظ في أبيات حاتم ، التداخل بين الشكل الشرير للنار والشكل الخير لها وهما " السعير والنور " وهذان الشكلان يتجسدان في صورة الحرب ، فسعيرها يبوخ أي ينطفئ ، وهو يصلها متحملا شدة حرها عند اشتداد نورها والنور لدى العربي له دلالة خيرة ، وإن كان مصدره النار إلا أنهم يستبشرون به ، فالجرب لها وجهها الحار الملهب وأيضاً لها جانب خير يتمثل في النور ، وإن اشتدت الحرارة فلها نور ويفتخر بدخول هذا النور الحار .

يقول الشماخ ضرار : ( ٣٨٢ )

صَلَيْتُ بِهَا فِي الْمُصْطَلِينَ بَحْرَهَا فَطَلْتُ وَوَدَّ كَأَنْتَ شَدِيدًا عِضَاهَا

وَعَمْرَةَ مَوْتٍ حَفَّتْ حَتَّى قَطَعْتُهَا وَوَدَّ أَفْطَحَ الْجَيْسَ الْهَدَانَ خِيَاضُهَا

وهو هنا يقاسى حرها بإرادته وسط المصطلين بها ، وكانت تحمل بداخلها موتا محققا من خلال شدة حرها وضراوتها كالنار ، ويتجاوز مخاطر كانت تفرغ الجبان البليد من خوضها . وعنتره أيضا يخوضها برأحه ودمه في حين تأجج نارها واستعارها على الناس فيقول : ( ٣٨٣ )

وَحُضْتُ بِمَهْجَتِي بَحْرَ الْمَنَائِيَا وَنَارُ الْحَرْبِ تَنْقِدُ اتَّقَادَا

ويلاحظ استخدام عنتره صورة البحر في التعبير عن إمكانية الموت المحقق ، مع ذكر النار

كعامل الموت وهي

(٢) ديوان الشماخ بن ضرار تحقيق صلاح الدين الهادي دار المعارف مصر ١٩٧٧ ص ٢١٤

" الجبس " : الجبان ، " الهدان " : البليد الأحمق

(٣) ديوان عنتره بن شداد - دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٥ ص ٤٦

متقدمة متأججة ، والفعل الخاص بنار الحرب " مضارع " لازم يفيد ذاتيتها في الاتقاد والتأجج ، والجمع بين صورتى البحر ، والنار يبدو هنا شذوذاً للنظرة السطحية ، ولكن أكد البحر هنا فكرة الموت والهلاك فهو " بحر المنايا " أى موضع الموت من خلال تلك النار التي استطاع عنتره أن يخوض بحرهما ، وهى تتقد ويؤكد هذا الفعل المضارع اللازم ، بمفعوله المطلق " اتقادا " ليؤكد المعنى ، ولتناقض الملحوظ بين البحر والنار يزيل بنظرتنا إلى المضاف إليه " المنايا ، والحرب " حيث تتوحد دلالة الموت والعدمية في البحر والنار ، ولا ننسى أن فكرة البحر المميت لها جذورها في اللاشعور الجمعي ، حيث إن العدم الذي سبق الوجود كان يمثل في صورة الماء والظلام .

والحرب عند كعب بن زهير حارة محتدمة فهي " وديقة " شهباء حرها يسفح كالنار فيقول :

يَطْهَرُونَ كَأَنَّهُ نُسْكٌ لَهُمْ      بدماءٍ من علقوا من الكفارِ  
وَأَيْهَمُّ اسْتَقْبَلْتُ كُلَّ وَدَيْقَةٍ      شهباء يسفح حرها كالنارِ (٣٨٤)

ورغم إسلام كعب إلا أن الصورة الأسطورية لا تزال عالقة في شعره، متمثلة في دماء القتلى التي كانت بمثابة شفاء وري ، لدرجة أنهم يتطهرون به كأنه شراب يتناولونه للخلاص أو نسك ذبح في الحرم ، وتقرب هنا صورة دم القتلى بصورة الدم المنير على نور الخيل عند بشر بن أبى خازم وسوف تعرض في الجزء التالي.

وهى تلتظى عند الأعشى كالنار، ويفتخر بأنه يدخلها ويخوضها أيضاً (٣٨٥) وعند قيس بن الخطيم لها نيران نزكو إذا انبعث وقومه فيها (٣٨٦) ولا ينتهي الأمر عند

(١) ديوان كعب بن زهير صنعة أبى سعيد السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر ١٩٦٥ ص ٣٥

الافتخار بخوضها فحسب ، بل ينتهي إلى أن الفارس يفتخر بأنه يخوض ناراً غير عادية ثم يطفئ لهيبها ويخمدتها بسيفه ورماحه وكأن إطفاء الحرب يكون بالحرب كالطقس السحري يقوم الفارس لإزاحة شر الحرب بالحرب كالسحر لا يبطله إلا شئ من جنسه " والحديد لا يفله إلا الحديد "

فيقول عنتر في هذا المعنى : ( ٣٨٧ )

باشرُتْ موكِبَهَا وَحُضْتُ غِمَارَهَا      أطفأت جمر لهيبها المتوقد

ويقول عروة بن الورد أيضاً ( ٣٨٨ )

ولرب مشعلة يشبُّ وقودها      أطفأت حر رماحها برماحي

وكتيبة أدنيتها لكتيبة      ومضاعن صبحت شر صباح

وإذا كانت هذه صورة النار المتجسدة في الحرب من مواضع الفخر في المقطوعات الشعرية السابق عرضها على سبيل المثال ، فإن الشاعر الجاهلي لم يغفل المدح بهذه الصورة وإذا كان الفخر والمدح غرضين شعريين متميزين في اصطلاح الأقدمين ، فإنهما يتلخسان في أنهما ثناء على أية حال ، سواء أكان على ذات المتحدث أم كان على الآخرين ، وقد أخذت صورة الحرب نصيباً غير قليل في تصوير هذا الثناء فخراً ومدحاً ، فقد يوصف الفارس وأدواته وحيوانه بصور النار ، أو يمدح ، فالوصف بالصور النارية فكرة سامية قديمة ظلت عالقة بالفكر العربي ، وظهرت واضحة في الشعر الجاهلي فقد كان الإله البابلي

(٢) الصورة في الشعر العربي د. على البطل ص ١٦١

(٣) ديوان قيس بن الخطيم دار صادر بيروت ١٩٦٢ تحقيق د. ناصر الدين الأسد ص ٧٢

(١) ديوان عنتر دار الكتب العلمية بيروت دت ص ٥٧

(٢) ديوان عروة بن الورد دار صادر بيروت ١٩٦٤ ص ٨٦ ، ٨٧

(مريوخ) يصور والنار جزء منه تمجيداً له وتقديساً لذاته النارية ، وقد جاء في اللوح الأول  
من الأنوما إيليش ما نصه

عندما رآه أبوه، خرج وامتلاً قلبه بهجة وحبوراً  
فكان أرفعهم مكاناً وأسبقهم في كل شئ بفن بديع تشكلت أعضاؤه

لا تدركه الأفهام ولا يحيط به خيال تتوهج النيران كلما تحركت شفثاه ( ٣٨٩ )

حيث يجمع هذا الإله بين الجمال ( رفعه المكان واتساق الأعضاء ) واللفظ  
( لا تدركهم الأفهام ) ، والجلال الذي تخيله الإنسان الأول في النار التي تخرج من فيه ، وإذا  
كان المدوح في المجتمع القديم يأخذ صورة البديل لمعبود المجتمع ( ٣٩٠ ) فليس غريباً أن  
يوصف المدوح في الشعر الجاهلي بنفس الصفات الإلهية السابقة  
وتظهر في الشعر الجاهلي صور المدح بوصف المدوح بأنه يدخل الحرب وهي  
مستعرة ، ولا يهابها فيمدح زهير الحارث بن ورقاء قائلاً :

لولا ابن ورقاء والمجد التليد له      كانوا قليلاً فما عزوا ولا كثروا

المجد في غيرهم لولا مآثره؛      وصبره نفسه والحرب تستعز ( ٣٩١ )

وأيضاً يمدح دريد بن الصمة عبد الله بن جوعان قائلاً :

وَجَدُّا إِذَا الْحَرْبُ مَرَّتْ بِهِ      يعين عليها بجذل الحطَب ( ٣٩٢ )

(٣) مغامرة العقل الأول فراس السواح ص ٤٨

(٤) راجع قصة الحضارة وول ديوارنت، ترجمة محمد بنران مجد ١ - ٢ ص ١٥٩ .

(١) ديوان زهير ص ٢٣

(٢) ديوان دريد بن الصمة ص ٣٣

وكعب يمدح قوما بأنهم ليوث غابٍ عند وغي الحرب قائلاً :

فى معشرٍ فيهم قرؤم سادة      وليوث غاب حين تضطرمُّ الوغى

ويصولُ بالأبدانِ كلُّ مسعرٍ      مثلُ الشهابِ إذا توقَّدَ بالعضى (٣٩٣)

وشجاعتهم تنجلي وتعرّف عندما تشتد الحرب فى ضراوتها مستخدما الفعل تضطرم وهو من أفعال النار. والأعشى يمدح قيس بن معد يكرب بأنه جاهل عندما تشب نار الحرب :

فَلَعْمَرِ مَنْ جَعَلَ الشَّهْوَرَ عَلامَةً      قدرا وبيّن نصفها وهلالها

ما كنت فى الحرب العوان مغمراً      إذ شبَّ حرُّوقِها أجزُلها (٣٩٤)

وتتكرر الصورة عند امرئ القيس والمهلل أخى كليب والخنساء، حيث يظهر الممدوح بقوته وجلده وشجاعته وهو يحش الحرب فى عنفها وخطرها مرتسمين لها صورة النار ليدلوا على قوة الممدوح وأحقيته فى البطولة (٣٩٥)

وعلى الوجه الآخر يوصف الإنسان الذي يظهر شجاعته بعد انطفاء الحرب وصفا " مذموما " إذ يكون فى الحرب مثل الثعلب، فيقول عروة بن الورد:

ثعالبُ فى الحربِ العوانِ فإنَّ تُبَّخْ      وتُنْفَرِحُ الجُلَى فإِنَّهمُ الأَسَدُ (٣٩٦)

(٣) شرح ديوان كعب بن زهير صنعة أبى سعيد البكري ص ٢٢٣

(٤) ديوان الأعشى دار صادر بيروت د٠ت ص ١٥٣

(٥) ديوان امرئ القيس الكندي ت محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف مصر ١٩٥٨ ص

١٠٤ ، ٢٧١- وراجع شعراء النصرانية قبل الإسلام لوبس شيخو ص ١٦٧

وراجع ديوان الخنساء طبعة المكتبة الثقافية بيروت دت ص ٤٠

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٢٦ " تبخ " أي تنطفئ

كذلك أبو الخطار الكلبي يذم من طاب له المأكل والمشرب بعد أن تخبون نار الحرب :  
فيقول :

وَقَيْنَاكُمْ حَرَّ الْقَنَا بِنَفُوسِنَا      وليس لكم خيلٌ سِوَانَا ولَأَرْحُلُ

فلما رأيتم واقِدَ الحربِ قد حَبَا      وطابَ لكم منها المشاربُ والأُكُلُ (٣٩٧)

وهنا يُعَيِّرُ أقواما بعدم مشاركتهم فى الحرب وقلة حيلتهم فيها، ويستنكف عليهم المأكل والمشرب، وفى هذا يستخدم صور النار بالألفاظ "واقد"، و"حبا".  
ومن هذا العرض تبدو صورة النار فى لوحات الحرب آكلة منتقمة بشكل واضح، ويستخدمها الشاعر فى غرض الفخر بدخول الحرب والاعتزاز بالصبر عليها، بل ويجعل ذلك شرطاً للنصر، ونيل الشرف والعزة كأنها طقس تعبدي لدى كل من يريد النصر. لا بد أن يجوز هذه النار المقدسة التي تشبه نيران المحارق على المذابح فى الفكر السامي القديم أو النار التي تأكل قربان الرجل الصالح فى التراث العبري والتي ظهر بها الرب فى عمود لبنى إسرائيل والتي هي عند العبريين الإله ربهم "نار آكلة" إله منتقم" (٣٩٨) بل كان يذم كل من يهرب فاراً منها ويتباطأ فى طلبها، وتتواتر هذه الصور فى الشعر الجاهلي بشكل نمطي، ربما يعاب عليه فى غياب الرؤية الأسطورية، فالحديث عن نار الحرب والاصطلاء

(٢) كتاب الوحشيات " الحماسة الصغرى " لأبى تمام ص ٤٢ ، ٤٣

(٣) راجع الحيوان للجاحظ ح٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، وانظر سفر الخروج ١٤ : ٢٠ ،  
والثنائية ٤ " ٢٣ ، ٢٤ " ، وبلوغ الأرب ح٢ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ وقصص الأنبياء لابن كثير  
ص ٣٦٩ والأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ١٤١ والفلكور فى العهد القديم  
ح ١ ص ٤٦ ، ح ٢ ص ٣٤٢ .

بها وخوض غمارها يظهر بمثابة مراسم لا بد من ترديدها بمعرض الحديث عن الحرب في الحياة العملية ، حتى صار تقليداً

شائعاً عند عامة شعراء ما قبل الإسلام، فالشعر الجاهلي يصدر عن عقل جماعي، والشاعر الجاهلي كفنان يلتزم ويرتبط بحاجات المجتمع العليا، والشعر الجاهلي كله يوثق أن يكون على هذا النحو<sup>(٣٩٩)</sup> الذي استوحاه الجاهلي من تراثه الثقافي العريق المتصل بديانات وأفكارها الأمم المجاورة .

ولا تخفى آلهة الساميين " نسكو "رسول" Sukkal" فى أرض الرافدين والإله مردوخ صاحب صور الدمار النارية، وفى سفر التنزية السومري إله النار المقدس " جيبيل" (٤٠٠) وتنتقم النار وتدمر الثلث الثاني من برج بابل (٤٠١) والساميون -كأصل للعرب- لا تخفى تأثيراتهم ويقايهم الفكرية فى المنطقة العربية والشرق القديم عموماً ، وإن كانت مظاهر هذه التأثيرات قد ضعفت قبيل الإسلام ، إلا أنها تلمح من خلال هذه الظواهر الفنية المشار إليها، ولا يهمل دور الطبيعة العربية المساهم بشكل فعّال فى رسم ملامح الشخصية العربية التي أنتجت شعراً رسم صورة حية لبيئة العرب وتأثيراتها على ساكنيها<sup>(٤٠٢)</sup> .

وإذا تابعنا صورة النار فى الحرب لدى العربي القديم، وجدنا الحرب أخذت صور النار بشكل موثق، تحمل صفاتها وأفعالها فى شكل تركيبات إضافية مثل " سنا الحرب " ،

---

(١) قراءة ثانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٥٣

(٢) الحضارات السامية القديمة ص ١٣ ، ٨٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ هوامش فصل ٤ ، مغامرة العقل

الأولى ص ١٦١ ، ١٧٤ ، ١٧٧

(٣) الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص ١١٩

(٤) أيام العرب وأثرها فى الشعر الجاهلي ص ٥٢

وانظر الوسطية العربية د. عبدالحميد إبراهيم ص ١٥١ .

"ونار الحرب"، "ونور الحرب" "ولهيب الحرب" أو مع الضمير "سناها"، "ونارها"، و"نورها"، "ولهيبها" وهكذا باسمها مباشرة أو بما يراد فيها ومثال ذلك قول عبيد بن الأبرص:

وَإِذَا الْخَيْلُ شَمَّرَتْ فِي سَنَا الْحَرْبِ      وَصَارَ الْعُبَارُ فَوْقَ الدُّؤْبِ (٤٠٣)

وتكرر هذه الصورة بالأشكال التركيبية للحرب مع النار أو متردفاتهما عند كثير من الشعراء

والحرب أيضا تسند إليها أفعال خاصة بالنار أو صفات منسوبة للنار، فعند دريد على سبيل المثال:

بِمَشْعَلَةٍ تَدْعُو هَوَازِنُ قَوْمِهَا      نَسَجَ مِنَ الْمَادِي لَأُمَّ مُرْمَلُ

لَدَى مُعْرَكٍ فِيهَا تَرَكَنا سَرَائِهِمْ      ينادون منهم مُوثِقٌ وَمُجَدَّلٌ (٤٠٤)

وهنا تشبه الحرب بالنار بهذه الصيغ التي تأخذ شكل المبالغة والتي توحد بين النار والحرب في الذهن العربي، ويلاحظ ذلك من حذف أدوات التشبيه التقليدية (٤٠٥)

والشاعر الجاهلي بعد ذلك وفي مواضع أخرى لم يترك التشبيه بأداته وطرفيه ليؤكد العلاقة القائمة بين الحرب والنار كشيئين مختلفين ليدعم الصورة الأسطورية لنار

---

(٥) مختارات شعراء العرب لابن الشجري ص ٤٣٩

(١) ديوان دريد بن الصمة ص ١٤٥

(٢) راجع تقييم مدرسة عبيد الشعر في ضوء نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني جميل عبد

المجيد دار حزاء بالمنيا ص ٤١

الحرب ، والتي كانت توقد للحرب بشكل واقعي ليلة قيامهم واستعدادهم للحرب ، والتي يشير البعض إلى أنها مجازية ، متغافلين العلاقة الأسطورية بينها .

ويستخدم المهلهل هذا النموذج :

وَسَقَيْتُ نَيْمَ اللَّاتِ كَأْساً مُرَّةً      كالنَّارِ شَبًّا وَقَوْدُهَا بِضِرَامِ (٤٠٦)

وأيضاً " المهلهل بن ربيعة : قائلًا :

وَقَدْ عَلَنَهُمْ هَفْوَةٌ هَبْوَةٌ      ذَاتَ هِيَاجٍ كَلْهَيْبِ الْحَرِيقِ (٤٠٧)

وعند جساس بن مرة لها وهج كالحرقيق :

تُسَعَّرُ نَارُهَا وَهَجًا وَجَاءَتْ      إِذَا حَمَدَتْ كَنْدِرَانَ الْفِصَاحِ (٤٠٨)

وعند أوس بن حجر :

قَرَأْتُهُمْ شَهِيَاءَ مَلْمُومَةً      مِثْلَ حَرِيقِ النَّارِ أَوْ أَضْرَمَا (٤٠٩)

ويصل الأمر إلى أشد من لظى سقر، أو أضرم من حريق النار عند دريد بن الصمة:

وَعَنْ قَلِيلٍ يَلَاقِي بَعْيَةَ وَتَرَى      حَرْبًا أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ لَظَى سَقَرِ (٤١٠)

وهكذا تستعير الحرب من النار كل هذه المواصفات وتظهر في الشعر الجاهلي كأنها النار بمحصول وافر من النصوص المتواترة في أرجاء التراث الجاهلي، يصعب عرضها جميعاً ، فهذه النار لها جذورها العميقة في تاريخ العرب والبشرية جمعاء ، تحمل صورة القوة

(٣) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ١٧٤

(٤) الجمهرة لأبي زيد القرشي دار نهضة مصر للطبع والنشر ص ٤٦١

(٥) شعراء النصرانية قبل الإسلام الأب لويس شيخو ص ٢٧٤

(٦) ديوان أوس بن حجر ص ١٦٣ .

(١) ديوان دريد بن الصمة ص ٩٩

(٢) مقدمة ابن خلدون المغربي ص ٢٧٠ ، ٢٧١

والقسوة وتعكس الرهبة والخوف والاحترام على نفس الإنسان ، لذا تمثلها الشاعر بهذا الكم  
وبذلك التنوع فى تصوير الحرب فى حياته مجسداً صورة النار فيها ليهدد بها ويحذّر منها  
ويفخر بقدراته فيها .

### الحرب نار يشعلها فاعل

إذا كانت الحرب واقعا فى تركيب البشر لا تخلو منه أمة ولا جيل ( ٤١١ ) فحياة  
العرب فى الجاهلية كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء ( ٤١٢ ) فهم دائماً قاتلون  
مقتولون لا يفرغون من دم ، وقد أرجع بعض الباحثين ذلك لأسباب متعددة جعلت من  
ساكني الجزيرة العربية رجال حرب يرؤن فى الغزو والقتل والنهب قيما مقبولة ، وهذا  
لأسباب اقتصادية كالصراع على المراعى والمياه ، واجتماعية كعادات الثأر والحمية  
والعصبية القبلية ( ٤١٣ ) .

وقد أرجع البعض هذه الظواهر للطبيعة العربية التي كانت تتطلب الشجاعة  
والإقدام وركوب المخاطر ، والتجملد للمكاره والخطوب ، فلا بد فى هذا المجتمع من القوة  
لأنها السبيل الوحيد للحياة الكريمة ( ٤١٤ ) .

لذا كانت مكانة الحرب فى نفس العربي كبيرة فهي - وكما سلف - تعد قوة  
جبارة تمثلت فى أعتى قوى الوجود إلا وهى النار ، وتبدو مشعلة متأججة تأكل كل شئ

---

(٣) تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي" د. شوقي ضيف دار المعارف مصر ١٩٨ ص ٦٢

(٤) أيام العرب وأثرها فى الشعر الجاهلي منظر الجبورى دار الشؤون الثقافية ص ٥٢

(٥) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه د. يحيى الجبورى مؤسسة الرسالة بيروت

١٩٨٣ ص ٦٤ ، ٦٥ ، وراجع العقد الفريد لابن عبد ربه ص ١٠٥

أنت عليه وتضرس الناس بأنيابها العُصل ويجن لها ويهر منها كثير من الناس إلا من أوتى قوة وجلدا ، لذا امتدح كل من زُد عن حوضه بسلاحه ، وفى الجزئية التالية سيعرض البحث صورة المدوح وهو يشعل الحرب بيده كالذي يشعل فتيل النار ويزكُّها حتى تحرق أعداءه فيظل العربي مادحًا بذلك ومفتخرًا • بصورة واضحة فى شعره؛ مجسدا لنا صورة النار فى الحرب ، التي كانت أبلغ تعبير فني عن التركيبة العربية ذات الأصول الثقافية والدينية العميقة والمتأثرة بطبيعة الجزيرة العاتية •

وبعض الصور السابقة للنار فى الحرب جاءت أغلبها موقدة وملتتهبة دون ظهور الإنسان – " الفاعل " فى هذه الصور كمشعل لها ، وهذه الصور أقرب للشكل الأسطوري لصور النار المعبودة المقدسة التي لا دخل للإنسان فيها وهى النار الأولى أو نار السماء التي دمرت بها سدوم وعمورة فى نوبة غضب يهوه؛ ( ٤١٥ )

والإنسان يتداخل رويدا فى صور نار الحرب ، وهو يوقدها ويضرمها مجهولا – بفعل أُسند إلى فاعل مجهول – ثم تبرز صورته معلوما بين الجميع إما مفتخرًا فى معرض حديثه عن نفسه ، وهو يشعل نار الحرب على خصومه وإما مادحا فى معرض حديثه عن غيره، أيضا يبعث نار الحرب عند غضبه •

فعند عنتره النار توقد " تضرم " فى الحرب بفاعل مجهول فيقول :

وَلَا عَيْبُ عَلَىَّ وَلَا مَلَامٌ إِذَا أَصْلَحْتُ حَالِي بِالْفَسَادِ

فَإِنَّ النَّارَ تُضْرَمُ فِي جَمَادِ إِذَا مَا الصَّخْرُ كَرَّ عَلَى الرَّتَادِ ( ٤١٦ )

(1) الأسطورة والوعى، عصام الدين حنفي ناصف ص ٥٩

(2) ديوان عنتره بن شداد ص ٤٢

ويلاحظ هنا أن " جماد " من غير الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال .

وهي عند المهلهل أخی كليب توقد بعد كليب بدون ذكر من يوقدها أيضا فى إحدى

مرثياته لكليب :-

نُبِّئْتُ أَنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ      وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كَلَيْبُ الْمَجْلِسُ\* ( ٤١٧ )

وهنا يتحسر على كليب الذي بموته اشتعلت الحروب وتشاتم الناس فى المجلس ، ويقترب الفاعل من البشر فى عملية إشعال نار الحرب قليلا فيظهر مشعلوها دون ذكر أسمائهم ، أو صفاتهم عند الخنساء وهى ترثى صخرا قائلة :

وَأَذْكُرُ، إِذَا مَا الْأَرْضُ أَمَسَتْ      هَجُولًا لَمْ تُلْمَعْ بِالْوَمِيضِ

فَمِنَ لِلْحَرْبِ إِذْ صَارَتْ كُلُّوْحَا      وَشَمَّرَ مُشْعَلُوهَا لِلنَّهْوضِ ( ٤١٨ )

ويظهر الفاعل موقدا للنار فى صور الشعر متمثلا فى البطل سواء أكان المتكلم مفتخرا بنفسه ويقوته ، من خلال قدراته على إشعال نار الحرب المنتقمة ، أو مادحا لغيره، بنفس القدرات ، وهذه القدرة على إشعال النار لم تكن جديدة لدى الجاهليين ولكنها متوارثة من أجيال قديمة ، فهذه القدرة كانت لدى آلهة قديمة لدى الساميين مثل " نسكو " ، ومردوخ " ، " جيبيل " وهم يشعلون النار فى وجه من يكرهون وفى سفر التين السومري يتوعد الإله " جيبيل " المقدس فى عصى يستلهم صورة النار المنتقمة فيقول :

سَأَرْمِيهِ بِالْحَرْبِ الطَّوِيلَةِ

وَسَأُوجِهَ ضِدَّهُ كُلَّ أَسْلِحَتِي

(١) شعراء النصرانية لوييس شيخو ص ١٧٤

(٢) ديوان الخنساء ص ٨٤

## وبالغابات المحيطة به سأضرم النار

وفى ( ٥٥٥ ) سوف أعرس فأسى البرءنزي ( ٤١٩ )

وتتواتر هذه الصورة في الشعر الجاهلي بشكل لافت عند كثير من الشعراء ، فعبيد بن الأبرص يوقدها للظالم المصطلي بها ( ٤٢٥ ) وفى موضع آخر يحميها إذا بردت ، وقيس بن الخطيم يشعلها ( ٤٢١ ) والمهلل أخو كليب يهيجها حيناً ( ٤٢٢ ) ويشبها عامر بن الطفيل مُسَعَّرَ ( ٤٢٣ ) وعبيد بن الأبرص يشبها ناراً في يوم شديد ( ٤٢٤ ) والسموأل يوججها ( ٤٢٥ ) وهذه النماذج تظهر فيها صورة الشاعر وهو يفتخر بقدراته على إيقاد وإحماء وتزكية هذه النار التي كان يرى فيها شفاء لما في نفسه من هموم وآلام ، وجلاء لما يحيط به من قيود ومشاكل .

وقد ورث العربي هذه الانطباعات من قبل فكانت النار شفاء لكثير من متاعبه النفسية ، وبخاصة نار الحرب التي تعادل النار التي يتداوى بها من الأمراض العضوية وهو ما يسمى لديهم " بالتداوى بالكي " ( ٤٢٦ )

(٣) مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص ١٧٤ . (... أجزاء ساقطة من النص على اللوحة .

(٤) راجع ديوان عبيد بن الأبرص ص ٦٧

(٥) ديوان عنثرة ص ٢١ ، وراجع ديوان دريد بن الصمة ص ٩٨ ، ٩٩

(٦) ديوان قيس بن الخطيم ص ٨١ ، شعراء النصرانية ص ١٤٧ .

١- نفسه ص ٢٥ وراجع الجمهرة ص ٤٦٢

٢- ديوان عنثرة ص ٣١

٣- ديوان عامر بن الطفيل ص ٥٧

٤- ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٤ وانظر مختارات شعراء العرب ص ٤٥٥

٥- راجع مقدمة بن خلدون ص ٢١٤

وتاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ص ٨٤

وفى النصوص الأوجاريتية الكنعانية، تدخل النار في عمليات طقوس الخصوبة والنماء في شكل قتالي مما يعطى نار الحرب شكلاً نفعياً لا يقتصر على شفاء الغليل فحسب بل يمتد إلى أنها طقس خصوبى منه تولد الخصوبة فى حقل الحياة وتهناً به الكائنات وتتغنى به العصافير: تقول ملحمة الإله بعل والإلهة عنت، وهى من أهم القصائد الأوجاريتية:

تقترب منه عنت العذراء

وكما يهفو قلب البقرة إلى بعلها، وقلب الشاة إلى حملها

كذلك يهفو قلب عنت إلى بعل

وتمسك بموت ابن أل وبالسيف تشقه، والمذراة تدرء

وبالنار تحرقه، وبالرصاص تطحنه، وفى الحقل تبرز:

فتأكلُ قِطْعَةَ الطيور (٤٢٧)

---

٦- الحضارات السامية القديمة - سبتي نوموسكاتى ص ١٣٠

وقد اقترب الدكتور مصطفى ناصف من نفس الفكرة حينما رأى في صورة نار الحرب على  
نحور الخيول أنها ميلاد في حلم جديد تمثل الدم  
في بيت بشر بن أبي خازم :

نَعْلُو الْقَوَّاسَ بِالسِّيُوفِ وَنَعْتَرِي  
وَالْخَيْلَ مُشْعَلَةَ النَّحُورِ مِنَ الدَّمِ (٤٢٨)

هذا الميلاد هو ميلاد السلام والاستقرار.

وليس سبيل إلى السلام المتمثل في النور إلا إذا سال الدم الذي يسقط على نحور الخيول في  
المعركة ويقول : " وحينما يسيل الدم يقترب الخيل من منازل الآلة

" تضئ " للناس السبيل فقد عقد بشر وغيره صلة قوية بين الدم والضوء وهذه الصلة تعنى  
بعبارة أخرى: تمثل حلم الولادة الجديدة التي يُعد الخضاب جزءاً من طقوسها" (٤٢٩)

وقد تحدث الشاعر الجاهلي عن الحرب مجسدا لهذه النار التي كانت تمثل له دواء  
لدائه العضال وميلاد حياة ثرية بالأمان المحفوف بالكرامة والهيبة بين عشائر البادية، مهما  
كلفه الثمن من دماء، في حين هي شؤم على الخصم . فعبيد بن الأبرص يقول : إنهم  
يشبونها للرياب ودارم فتنعب الغربان في ديارهم شؤماً:

وَلَقَدْ شَبَبْنَا لِلرِّيَابِ وَدَارِمٍ  
نَارًا بِهَا الطَّيْرُ الْأَشَائِمُ تُنْعَبُ (٤٣٠)

ورغم تصرّحه في البيت بأن الشؤم يلحق بموضع هذه النار، إلا انه يفخر بها، فالنار كانت  
عملة لها وجهان في وقت واحد، فهي خير لقوم وشؤم وضياح لقوم آخرين .

(١) الجمهرة لأبي زيد القرشي قصيدة بشر ص ٤٠١

(٢) قراءة ثمانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٨٥

(٣) مختارات شعراء العرب لابن الشجري دار التوفيقية ١٩٧٩ مصر ص ١٦٦

وعوف بن عطية يرى فيها منهلا كمنهل الماء عند افتخاره ببني عوف وصنيعهم في

الحرب قائلاً :

فَلَوْلَا عِلَالَةٌ أَمْرًا سِنَا لَرَأَى دُكْمُ الْقَوْمِ خِرْيًا وَعَارًا

إِذَا مَا اجْتَبَيْنَا حَبِي مَنَهَلٍ شَبَبْنَا لِحَرْبٍ بَعْلِيَاءَ تَارًا (٤٣١)

والملاحظ أن النار والحرب متعانقتان في هذه الفكرة - فكرة التطهير والشفاء - وكناتهما تمثل عنصراً مقدساً يبرد الغليل ويذهب الغيظ فالحرب كانت في نظر الشاعر الجاهلي خالية من الدنس أو الإثم فهي " الماء الذي يطهر الإنسان " تلك هي فلسفة الحرب (٤٣٢) والنار أيضاً هي وسيلة طبيعية للتطهير بعدها أغلبهم يذهبون دفاعاً ضد الأرواح الشريرة ، وقد كانت تمثل الاغتسال من الشر (٤٣٣)

لذا حفل الشعر الجاهلي بمدح من يوقد نار الحرب عند الشرفيقول سويد :

صَاحِبُ الْمُرَّةِ لَا يَسْأَمُهَا يُوقِدُ النَّارَ إِذَا الشَّرُّ سَطَعَ (٤٣٤)

وَيُمدح من يضرمها : عند سلامة بن جندل :

لَمَّا رَأَوْا أَنَّهَا نَارٌ يُضْرَمُهَا مِنْ آلِ سَعْدِ بْنِ الْبَيْضِ الْمَنَاجِبِ (٤٣٥)

(٤) المفضليات للمفضل الضبي تحقيق عبدالسلام هارون ، وأحمد شاكر دار المعارف مصر

١٩٨٣ ص ٤١٥

(١) قراءة ثانية لشعرنا القديم د ٠ مصطفى ناصف ص ١١٣

(٢) "ency of religion and ethers - vol " 6 " p " 30 "

(٣) المفضليات ص ١٩٨

وراجع شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ، شعر سويد بن كاهل ص ٤٣٢

(٤) نفسه شعر سلامة بن جندل ص ٤٩٠

وتعددت مواضع مدح من يسعر الحرب أو يسعر لها حتى سمي المسعار على صيغ المبالغة ، ومنها وردت المساعير، وكانت هذه أسماء تُطلق تشریفاً وتعظيماً لمن يوصف بها ، وقد ورد اسم شاعر بالأصمعيات وهو " الأسعر الجعفی " ( ٤٣٦ ) ونكاد هنا أن نفس موضوع التسمية بالنار ، وهو ما سيعرض له البحث بعد حين في موضع خاص .

وإذا تتبعنا صور المدح لمن يسعر النار نرى النابغة يقول :

قَد حَلَّتِ الحَرْبُ عَنْهُ فَهُوَ يُسْعِرُهَا      كَالِهِنْدَوَانِي حَلَّى حِدَّةَ الأَدْمِ ( ٤٣٧ )

وتقول الخنساء مادحة صخرأ بنفس الخصال أيضاً :

خَلْدٌ جَمِيلٌ المُحْيَا كَامِلٌ وَرِعٌ      وَالمُحْرَبِ غَدَاةَ الرَّيْعِ مِسْعَارُ

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الهُدَاةُ بِهِ      كَأَنَّهُ عَلِمُ فِي رَأْسِهِ تَارُ ( ٤٣٨ )

ويقول الأعشى مادحاً قيس بن معد وهو يسعر نار الحرب :

تَلَاقَيْنِ قَيْسًا وَأَشْيَاعَةً      يُسْعِرُ للحَرْبِ تَارًا فَتَنَارًا ( ٤٣٩ )

والنابغة يصف القوم أيضاً بأنهم " مساعير " يهيجون نار الحرب ويضرمونها :

شَعَتِ عَلَيْهَا مَسَاعِيرُ لِحَرْبِهِمْ      شَمَّ العَرَانِينَ مِنْ مُرْدٍ وَمِنْ شَيْبِ ( ٤٤٠ )

(٥) الأصمعيات ص ١٦٢

(٦) ديوان النابغة الذبياني تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ١٩٦ .

(١) ديوان الخنساء ط ١ المكتبة الثقافية د . ت ص ٤٥

(٢) ديوان الأعشى دار بيروت د . ت ص ٨٢

(٣) ديوان النابغة الذبياني ص ٥١

(٤) أشعار الشعراء الستة الجاهليين، للأعلم الشنتمرى، دار الأفاق الجديدة بيروت ١٩٨١ ص ٢٥٤

ولا يفوت الشاعر الألفاظ التي تستخدم لأفعال تصنع مع النار لإزكائها وتقويتها فيظهر  
عنتره المدوح وهو يشب نار الحرب فيقول :

وَأَنَّ تَكِ حَرْبِكُمْ أَمَسَتْ عَوَاتَا      فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ مِمَّنْ جَنَاهَا  
وَأَكْبَنُ وَأُدُّ سَوْرَةَ أَرْتُوهَا      وَشَبُّوا نَارَهَا لِمَنْ اصْطَلَاهَا (٤٤١)

وقد ورد هنا فعلا " اصطلاها"، "وشبوا" وشب من أفعال النار، وهو يعنى شدة ارتفاعها  
واشتباكها في وقودها، وهو نتيجة مشروطة لمن اصطلاها وطلبها فكأن الثاني شرط الأول ،  
فنار الحرب هنا دفاعية لا توقد إلا لمن اصطلاها لذا فالشاعر يمدحهم بهذه النار التي ليس  
فيها ظلم ولا افتراء ، ولكنها لرد من طلبها ويقول خدش بن زهير العامري :

حُمَاة يَشْبُونَ الْحَرْبَ وَسَادَةٌ      يَجْرُ عَلَيْهِمْ آخِرُ الْجُرَائِرِ (٤٤٢)

وعلى هذه الشاكلة ترد نار الحرب عند كثير من الشعراء بشكل متكرر ، فعند  
الأعشى يورى المدوح النار ويقدم لها في الحرب كالقادح للزناد (٤٤٣)

وعند زهير : المدوحون يخشون بأدواتها وكأنها أدوات إيقاد النار وحشها  
" المشرفى " : وهو السيف والقنا " وهو الرمح (٤٤٤)

والملاحظ في هذا العرض السريع على سبيل المثال في منظومة المدح الجاهلية، أن  
ألفاظ المدح تحمل أفعالا تعنى في مجملها تدخل المدوح في خلق وتدعيم وتزكية الحرب ،  
وكانها نار ذات وجه شرير ويمثل في ذات الوقت تطهرا وشفاءً لنفسية العربي في موقفه

---

(٥) كتاب الوحشيات " الحماسة الصغرى " لأبى تمام حبيب بن أوس الطائي، تحقيق محمود شاکر ص ١١٠

(١) ديوان الأعشى دار صادر بيروت ٤٠ ت ص

(٢) ديوان زهير دار صادر ص ٨٢

وانظر شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٦٩

مع عدوه ، فنلاحظ الألفاظ : " يوقد - يضرهما - يسعرها - مسعار - مساعير - شب - يشبون - بوري - يقدح " كلها تجسد النار في صورة الحرب التي تأكل الأعداء وتطحنهم طحنا فتريح الشاعر منهم وتشفى غليله .

والحرب كما أنها توقد كالنار هي أيضاً تطفأ مثلها بأفعال مشابهة للأفعال التي تطفأ بها النار، فمثلما يوقدها الشاعر ويرسلها في الحرب على خصومه، هو نفسه يخمدتها ويطفئها أيضاً بسلاحه، كأن هذه النار في الحرب قوة سحرية لا يتغلب عليها إلا بقوة سحرية من جنسها يقول عروة :

وَلَرُبَّ مُشْعَلَةٍ يُشْبُّ وَقُودُهَا      أَطْفَأَتْ حَرِّ رِمَاحِهَا بِرِمَاحِي (٤٤٥)

والملاحظ هنا أن الحرب مشعلة بشكل صريح ووقودها يشب بفعل مضارع مستمر في حينه ، ولكن كيف سيطر الشاعر عليها وأبطل مفعولها ؟ بفعل يستخدم أيضاً لإبطال مفعول النار وهو " أطفأ " وأطفأت " حر رماحها " وبنفس النوعية التي استخدمت لإيقادها وإشعالها وهي الرماح " برمachi " فهي شبه النار في اشتعالها وأثرها وأيضاً في إنطفائها والتغلب عليها .

وحاتم الطائي يطفئ نار الحرب بالأسياف وهي أيضاً سلاح يستخدم لإيقاد نار الحرب في مواضع أخرى فيقول :

وَعَمْرَةَ مَوْتٍ لَيْسَ فِيهَا هَوَادَةٌ      يَكُونُ صُدُورُ الْمُشْرِفِيٍّ جُسُورُهَا

صَبَرْنَا لَهَا فِي نَهْجِهَا وَمَصَامِّهَا      بِأَسْيَافِنَا حَتَّى يَبُوحَ سَعِيرُهَا (١)

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٨٦ ، ٨٧ .

فكانت أداة الصبر لديهم الأسياف في أيديهم يبدون مسيطرين على الحرب محجّمين لها حتى يبوخ سعيها وهذه صورة تشابه صورة الإطفاء بالرمح السابقة .

وتتكرر صور الفارس الذي يطفئ نار الحرب هو، كما أشعلها وبسلاحه وبشكل متكرر في الشعر الجاهلي، فعنزة يطفئ حر لهيبها المتوقد (٤٤٦) وعبيد بن الأبرص يطفئها بعد شبوبها (٤٤٧) والمهلهل أخو كليب يُهَيِّجها حيناً ويطفئها حيناً آخر (٤٤٨) .  
فالحرب عندهم لعنة ترسل على الخصوم بحرابها كاللعنات السحرية، في شكل طلسم ولا يرد مفعولها إلا طلسم من نفس جنسها، وهو الفارس الذي يرد نفس اللعنة بسلاحه . فيطفئ نارها التي يستبعد أن تكون ناراً حقيقية .

إذن يرد السؤل : هل نار الحرب نار حقيقية أم نار مجازية؟؟ وما سر هذا التواتر والتكرار بشكل نمطي في رسم صورة الحرب باستخدام النار وخواصها وأفعالها؟

لم يرد أن العرب كانت تتعامل مع نار الحرب كنار حقيقية، بل يثبت العكس ما أورده الدكتور جواد على من أنهم كانوا إذا أرادوا إطفاء نار الحرب ، أخرجوا النساء قبلن بين الصفين يرون أن ذلك

يطفئ نار الحرب ويقودهم إلى السلم (٤٤٩)

وجساس بن مرة يوجه الرؤية العربية لنار الحرب وجهة دينية ذات مغزى روعي

ونفسي فيقول :

---

(٢) ديوان عنزة بن شداد ص ٥٧

(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٧٦

(٤) شعراء النصرانية قبل الإسلام، لويس شيخو شعر المهلهل أخو كليب ص ١٦٧ .

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام د. جواد على ح ٦ ص ١١٢

تَسْعَرُ نَارَهَا وَهَجَأَ وَجَاءَتْ إِذَا حُمِدَتْ كَنْيْرَانِ الْفِصَاحِ (٤٥٠)

ولا تخفى مكانة نار الفصاح الريحية لدى أهل الجزيرة من النصارى .

ويستبعد أيضا أن تكون نار الحرب عند العرب ، ناراً " مجازية" فقد عرض الدكتور جواد على للنيران المجازية لدى العرب وذكر نار الحب ، ونار المعدة ، ونار الحمى ، ونار الشوق ، ولم يذكر نار الحرب من النيران المجازية ، بل عرضها بين ما قصدوه من نيران العرب وأن للعرب أربع عشرة ناراً منها نار الحرب(٤٥١) وقد ذكرت نار الحرب التي كانت العرب توقدها عند الاستنفار للحرب في أكثر كتب الأدب(٤٥٢) وهذه لا تتعدى صورة الإعلان للحرب كدق الطبول مثلاً، وإذا كانت نار ليست بالحقيقة ، وأيضاً " ليست بالمجازية ، إذن نستنتج أن النار كان لها مدلول آخر يأخذ الشكل الطقوسى الديني، وكان هو السر وراء هذا التكرار الذي عده البعض تقليدياً " شكلياً " في استخدامات صور الشعر الجاهلي ، فنار الحرب تمت إلى الحقيقة كراسب من رياسب المعتقدات القديمة، وأيضاً تمت إلى الخيال الأسطوري بصلة ما، ورغم ذلك فهي في مستوى ثالث بين الحقيقة والخيال، وهو المستوى الأسطوري .

(٢) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو شعر حساس بن مرة ص ٢٤٧

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ٧٠١

(٤) راجع خزانة الأدب ج٧ ص ١٤٨ : ١٥٠ ، الحيوان ج٥ ص ١٧١ ، ١٧٢ ، صبح الأعشى ج١ ص ٤٠٩ ،

بلوغ الأرب ج٢ ص ١٦١ ، ١٦٢ ، الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٨٨ الكشكول ص ٣٨ ، ٨٥ .

هذا المدلول هو الشكل الأسطوري لصورة النار، النار المقدسة التي كانت تنتقم من الظالم واتخذ ذكرها في لوحة الحرب بمثابة ترنيمة أو لازمة مقدسة لا بد من ترديدها كتعويذة عند حديثه عن الحرب .

وإلا فكيف يقلد الشعراء الجاهليون بعضهم بعضا بهذا الكم وبذلك الكيف ؟ وكما يتساءل الدكتور مصطفى ناصف ؟ كيف أصبح هذا التقليد مستساغا؟ ما الفكرة التي تقع وراء هذا التقليد ؟؟ (٤٥٣)

والإجابة عن هذا التساؤل تحتاج الرجوع إلى كتب التاريخ والأخبار ، والأساطير ، والديانات القديمة ومحاولة رصد العلاقة بين معالم الموروث القديم وانعكاساته الفنية على تراث الجاهليين الشعري حتى يمكن كشف الغموض عن كثير من الظواهر الفنية والحكم على هذا التراث بمعايير نقدية حديثة بدلا من اتهاماته والهجوم عليه .

### صورة النار في وصف السلاح

وللنار مع السلاح قصة في لوحة الحرب الجاهلية ، حيث تشكل النار عنصراً أساسيا في وصف السلاح في شعر الجاهليين بشكل يدعو إلى التساؤل ، إذ تأخذ هذه الدلالة الطبيعية للنار بما تحمل من عنف وتدمير وشكل يوحي بالرهبة ، ولا بد من وجود أصول ميثولوجية قديمة تحمل نفس الدلالة ، وتعكس الترابط بين النار والسلاح حيث يبدو السلاح كلغات يرسلها الشاعر على أعدائه محملة بالنار كإله أو صورة من الإله المنتقم .

فالسهم كالطلق من النجم وهو كمصباح العزيز ، وكجمر الغضا ، والسيف كالقبس المتلهب أو كلمع البرق ، أو كالنجوم استقلت أو كتلماع الغمام أو كأنة الشهاب ، والرمح مثل نبراس النهامى ، أو كاللهب الشاعل ، وكلهبان جمر ، أو كالشهاب الشاعل ، أو

١- راجع قراءة ثانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٥٤

كالشهاب بدا في ظلمة الليل أو نجوم ليل أسود، وكانار بالليل ، وهذا التكرار والتواتر لصور النار بشكل متشابه نستطيع أن نرده إلى الأصول الميثولوجية القديمة : فدائرة المعارف البريطانية تذكر تحت عنوان

"The original uses of fire" الاستخدامات الأولية للنار :

" تعلم الإنسان البدائي كيف يشعل النار، وكيف يستفيد منها فإنهم عرفوا النار ليس فقط كحامية من البرد وكأداة للطهي ولكن أيضاً " في الصيد والحرب " <sup>٤٥٤</sup> . فالإنسان البدائي إذن استخدم النار كسلاح في

الحرب والصيد ، وتراكم ذلك في ذهن البشر حتى أشار الشاعر الجاهلي بشكل رمزي عن هذه الفكرة وقوى الهيولى تظهر في شكل مخلوقات نارية تخرج النار من أفواهها ، وبحيرات لهب في حماية أبواب العالم السفلى ( <sup>٤٥٥</sup> ) وفي سفر التكوين البابلي اللوح الرابع يستخدم الإله مردوخ أسلحة نارية في القضاء على تعامة ( <sup>٤٥٦</sup> ) والإله " أتو" يتقبل قربان جلامش ويهبه أبناء عظام يتقوى بهم ، ومنهم النار والبرق ( <sup>٤٥٧</sup> ) .

وقد عرض سبتينوموسكاتى للرسوم البارزة في أرض الرافدين والتي تشبه مثيلاتها في العصور الوسطى فكان المهاجمون يستعملون الأقواس والسهم ويقذفون المهاجمين الآخرين بالنار والسوائل الملتهبة ( <sup>٤٥٨</sup> ) ، فالرب يشعل في طرف المحلة عندما يغضب من

---

The new Ency – Britanica vol " 4 " p " 788"

-٢

(١) الرمز والأسطورة في مصر القديمة رندل كلارك ترجمة أحمد صليحة ص ١٦١

(٢) مغامرة العقل الأولى ص ٤٣ ، ٥٧ ، وراجع الحضارات السامية القديمة ص ٨٣ ، ٨٤

(٣) نفسه ص ١٧٧ .

(٤) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص ١٠٣

بني إسرائيل (٤٥٩) وهذا الرمز للنارى للحرب وأدواتها عند المصريين والبابليين واليهود ، وكذلك العرب ، أخذ صفة الشيوخ والشمول بين طوائف البشر فلغة الرمز هي اللغة الشائعة والمتطورة للجنس البشرى ، فكل إنسان يشترك في الملامح الأساسية للكمال الجسدي والعقلي مع باقي الخليقة (٤٦٠) وهذا التشابه في الرموز يظهر - تلقائياً - في خطوط متوازية في أنحاء العالم المختلفة دون أن يكون الفرد قد عاناها أو مرت في خبرته . ودون احتمال الانتقال أو التوزيع ، وهذا التشابه في الرموز الأسطورية والأحلام كما يبدو في عصور متباعدة وبين شعوب متفرقة، هو أكبر دليل - عند يونج - على وجود اللاشعور الجمعي (٤٦١) وهذا اللاشعور الجمعي قد تسرب إلى كثير من صور الشعر القديم، وقد رد الدكتور على البطل هذا التشابه والتكرار إلى تقاليد فنية ذات صلة وثيقة بممارسات دينية موغلة في القدم (٤٦٢).

وإذا تناولنا ظاهرة النار المتمثلة في السلاح لوحة الحرب نجد تكراراً عريضاً أو كلاًه البعض إلى التقليد الشكلي قائلاً: وهذا التقليد يفسر لنا اتحاد المعاني والصور والتشبيهات ، ومعالجة الموضوعات عند الشعراء الجاهليين حتى إذا استطاع شاعر أن يبتدع في إخراج صورة من الصور أو تشبيه من التشبيهات أخذ الشعراء الآخرون فاستخدموه، وتداولوه ، ونسجوا على منواله (٤٦٣) وقد استند هذا الرأي إلى قول كعب :

(٥) الكتاب المقدس سفر العدد ١١ : ١

(٦) The forgotten language An introduction to understanding of drams

Fairy tale and myths p " 25"

(٧) الصورة الأدبية د. مصطفى ناصف ص ٨٧٤

(٨) الصورة في الشعر العربي د. على البطل ص ١٤ ، ٩٧ ، وراجع الشعر الجاهلي قضاياها

الفنية د. إبراهيم عبد الرحمن ص ٧١

(١) الطبيعة في الشعر الجاهلي د. نور حمودى القيسي مكتبة النهضة العربية - بيروت ١٩٨٤

مَا أَرَاتَا تَقُولُ إِلَّا رَجِيعَا      أَوْ مَعَادَا مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُورَا

وقد أهمل الدكتور بذلك الجانب الطقسي والأسطوري المعترف بوجوده عند الجاهليين، وإلا فما الفرق بين تقليد الجاهليين بعضهم بعضًا والتقليد في المراحل التالية؟ ولماذا لم يرق تقليد اللاحقين بعد هذا العصر إلى مستوى تقليد الجاهليين بعضهم بعضًا؟!؟

فلماذا يُرى التقليد في العصر الجاهلي مستساغًا، وفي العصور التالية ركيكا مبتذلاً؟

أظن أن السبب راجع إلى تفرغ الصور الشعرية بعد الإسلام من مضمونها الأسطوري والسحري، الذي كان يمدّها بمذاق ونكهة خاصة لا تنتهي عند إدراك أطراف التشبيه أو الكشف عن الاستعارة أو الكناية أو المجاز والتورية، لقد استمدت الصور الشعرية قبل الإسلام خصوصيتها وبقارتها- رغم تكرارها- من أصولها الدينية والأسطورية التي كانت بمثابة اللاشعور الجمعي الذي يقول عنه الدكتور مصطفى ناصف: " فإذا تذكرنا مدلول اللاشعور الجمعي بدا أمامنا التكرار محتاجاً إلى تفسير(٤٦٤)

وإنظر إلى تشبيهه الحرب " الأسلحة " بالصور النارية ، فالسهام عند الشماخ بن ضرار

كأن توقدها في الصباح تُوَقَد نيران العرفج بقوله :

تواصى بها العكراشُ في كلِّ مَشْرَبٍ      وَكَعْبُ بْنُ سَعْدٍ فِي الْجَدِيلِ الْمُضْرَجِ

بزرِقِ النواصي مُرَهَفَاتِ كَأَنَّمَا      تُوَقَّدُهَا فِي الصُّبْحِ نَيْرَانُ عَرْفَجِ(٤٦٥)

ص ٢٣١ ، ٢٣٢

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٥٤

(٣) ديوان الشماخ بن ضرار الزبياني . تحقيق صلاح الدين الهادي . دار المعارف مصر ١٩٧٧ ص ٩٥ .

فالسهام كالنيران في سرعة التهابها ولون بريقها وهي منطلقة من العكراش بن زئيب  
وكعب بن سعد وهما من الرماة المهرة، وأراد الشاعر أن يؤكد على التشابه بين السهام ولون  
العرفج المشتعل شديد الحمرة بإيقادها في الصباح • فحدد زمن توقد هذه النيران التي  
تشبهها السهام فقال توقدها في الصباح "

والسهام أيضاً عند أوس بن حجر كجمر الغضا فيقول :

تخيرن أنضاء وركبُن أنصلا كجمر الغضا في يوم ریح تزيلا (٤٦٦)

فنار التهابها وحمرتها وشدة حرارتها وتأثيرها على من ضرب بها ، ومما يدل على شدة  
التهابها هنا هو التقيد الذي قيد به أوس المشبه به " جمر الغضا" حيث قيده " في يوم ریح "  
وأثر الريح في شدة اتقاد الجمر معروف •

وتتكرر الصورة عند أوس أيضاً فيقول :

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها تاباً من الشر أعصلا

أصم ردينيا كأن كعوبه نوى القسب عراًصاً مزجاً منصلاً

عليه كمصباح العزير يشبهه لفضح ويحشوه الزبال المفتلاً

وأملس صوليا كنهى قارارة أحس بقاع لفع ریح فأجفلا

كأن قرين الشمس عند ارتفاعها وقد صادفت طلقاً من النجم أعزلاً

(١) ديوان أوس بن حجر ص ٩

تردد فِيهِ ضَوْءٌهَا وَشَعَاعُهَا فَأَحْسِنُ وَأَرْزِنُ بِأَمْرِيءِ إِنْ تَرَيَّالًا (٤٦٧)

وصورة السهام هنا تتطور عند أوس فهو أَعَدَهَا للحرب إعدادا خاصا بعد أن أدرك ورأى خطورتها " نابا من الشر أعصلا" وعدد أوس في مواصفات هذا السهم فعليه من الضوء مثل ضوء مصباح العزيز، وهو كالطلق من النجم يتلاقى مع قرين الشمس " أشعة الشمس " ، وتتردد فيه أضواء الشمس وأشعتها وكأنه أيضاً " مرآة تعكس ضوء الشمس رغم أنه في ذاته كمصباح العزيز .

ويلاحظ هنا أن سهام أوس اتخذت شكل النار، ولكن ليست نارا عادية ، وإنما هي نار مختلفة هي من جنس النار المقدسة مثل نار مصباح العزيز حينما يوقد في عيد الفصح أي ليس في ظرفه العادية ، والنار المقدسة عند المسيحيين واليهود في أعيادهم وعند مذابحهم " المحارق " لها دور لا يغفل في العقيدة الدينية ، ولعل أوس صدرت منه هذه الصورة النابعة عن التراث المسيحي لاتصاله بالمسيحية وتدينه بها ، فقد عده لويس شيخو من شعراء النصرانية قبل الإسلام (٤٦٨) وقد أشاد الدكتور طه حسين والدكتور علي البطل بالتفصيل في هذا التشبيه (٤٦٩) .

والسهام من تَوَقَّدُهَا تلمع عند البراق بن ربيعة فيقول :

أَقُولُ لِنَفْسِي مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ      وَسُمُرُ الْقَنَا فِي الْحَيِّ لِأَنَّكَ تَلْمَعُ (٤٧٠)

(٢) نفسه ص ٨٣ ، ٨٤

(١) شعراء النصرانية قبل الإسلام ص ٤٩٥

(٢) راجع في الأدب الجاهلي د. طه حسين م ص ٢٧٧

، والصورة في الشعر العربي د. علي البطل ص ١٦١ .

(٣) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ص ١٤٢

وهنا تتضائل " الصورة النارية للسهم ولكن فيها إشارات نارية وهي لمعان السهم ، وتنقل العلاقة بين السهم والنار، وسر قوة السهم الموكولة للنار. والشاعر يصف السهم في المعركة مستعيدا أطوار صناعته منذ أن كان يصاغ على النار موضحا

" أن النار هي العامل الأساسي في تشكيل هذا السهم وجودته " :-

وَأَصْفَرَ مَضْبُوحَ نَطْرَتِ حَوَارٍ عَلَى النَّارِ وَسُودَعْنُهُ كَفَّ مُجْمِدٍ (٤٧١)

فهو يتخيل رجوع هذا السهم وعرضه على النار التي غيرته وهو في يد " للمجمد وهو " الحداد " وكأن هذه النار التي شكلت السهم ، قد اختزنت فيه وظلت كامنة ، حتى جاء وقت المعركة ، والإطلاق فأخرج السهم قوته النارية الكامنة .

والسيوف أيضا لها دور مع النار، فقد رسمها الشاعر الجاهلي بصور نارية بشكل يدعو للتأمل والتدقيق والتأني في القراءة، فعلاقة السيف بالنار ليست مبتدعة " لدى الشاعر الجاهلي ، ولكن لها جذورها

العميقة فقاموس الرموز والخيال يشير إلى هذه العلاقة بشكل مباشر، فالسيف يشارك النار في طبيعتها وتدميرها وطاقتها (٤٧٢) فالسيف كالوقد أو كالعقبس الملتهب أو كالنجم والشهاب أو كلمع البرق ، وكل هذه صور نارية لها دلالتها في وصف السيف بالذات يدل على أن السيف الذي يعنيه الشاعر له قوة وسرعة ومضاء، وتدمير والنار قدسيتها وقدرتها على حماية من يلجأ إليها .

فهي بأيدي الفوارس كالنار يقول عبيد بن الأبرص :

(٤) الجمهرة لأبي القرشي دار نهضة مصر للطبع والنشر مصر . د . ص ٣٧٣

(١) - Dictionry of symbols and Imagery p " 187"

(٢) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٢٦

دَعَا مَعَاشِرَ فَاَسْتَكَّتْ مَسَامِعُهُمْ      يَالْهَفَ نَفْسِي لَوْ تَدْعُو بَنِي أَسَدٍ

تُدْعُو إِذَا حَامِيَ الْكُمَاهَ لِأَكْسَلًا      إِذَا السُّيُوفُ بِأَيْدِي الْقَوْمِ كَالْوَقْدِ (٤٧٣)

وتطير من أطرافها النار في الكتيبة عند علقمة الفحل : فيقول :

دافع قَوْمِي فِي الْكُتَيْبَةِ إِذْ      طَارَ لِأَطْرَافِ الطُّبَاتِ وَقَدْ (٤٧٤)

وهي عند عنتره تشعشع في استعمالها كالنار وهي تلتصق بالزنود :

تَرَى بِيضًا تَشْعُشَعُ فِي لَطَاهَا      قَدْ التُّصَقَتْ بِأَعْضَاءِ الرُّؤُودِ (٤٧٥)

وأيضاً " كالقبس الملتهب عند عنتره :

تَتَابَعٌ لَا يَبْتَغِي غَيْرَهُ      بِأَبْيَضٍ كَالْقَبْسِ الْمُلْهَبِ (٤٧٦)

وعند طفيل أيضاً " ضرام بكفي قابس " :

وَجَعَلَ دُونِي مَنْ يَوْثُ لَوْ أَنَّكُمْ      ضِرَامٌ يَكْفِي قَابِسَ يَتْلَهُ بٌ

وَأَصْبَحَ لَا يَدْرِي أَيَقْعُدُ فِينَكُمْ      عَلَى حَسَكِ الشَّحْنَاءِ أَمْ أَيْنَ يَذْهَبُ (٤٧٧)

---

(٣) ديوان علقمة بشرح الأعلام الشنمري دار الكتاب العربي حلب ١٩٦٩ ص ١٠٤

(٤) ديوان عنتره بن شداد ص ٤٤

(٥) المرجع السابق ص ١٧ .

(١) كتاب الوحشيات " الحماسة الصغرى " لأبي تمام ص ٩١

ولا تخفى عبادة العرب للنجوم ومعرفتهم بعلومها فقد كانوا يستسقون بها ويتبركون بنوئها ، وخاصة نجمة الصباح الزهرة (٤٧٨) .

ووصف السيف بالنجوم والشهب لا يستبعد أن يكون صادراً عن فكر ديني يبعث على التفاؤل والاستبشار بالسيف عند وضعه بالنجم ، والنجوم والكواكب لا تخفى علاقتها بالنار (٤٧٩) ، إذن هذا الوصف يمثل طقوساً وعبادات لها رؤسبها ، وإن كان قد عفي عليها الزمن ، وظهرت في هذه الفترة بشكل باهت إلى حد ما إلا أنها تدل على دور النار في حياة العرب الدينية ، كالسيوف عند عنترة تلمع كلمع البروق في ظلام الليالي السواناء فيقول :

وَتَلْمَعُ فِيهَا الْبَيْضُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ      كَلْمَعِ بُرُوقِ فِي ظَلَامِ الْغِيَاهِبِ (٤٨٠)

وعند أوس بن حجر مثل تلالؤ البرق في السحاب فيقول :

وَأَبْيَضَ هِنْدِيًّا كَأَنَّ غَرَارَةً      تَلَالُؤُ بُرُقِ فِي حَبِي تَكَلَّادِ (٤٨١)

وعند كعب ظبات السيوف لها كلمع البرق في السحاب الأبيض :

رَمِيَتْ نَطَاءً مِنَ الرَّسُولِ بِفَيْلِقٍ      شَهْبَاءَ ذَاتِ مَنَاكِبِ وَفِقَارِ

بِالْمَرْهَفَاتِ كَأَنَّ لَمْعَ ظَلْبَاتِهَا      لَمْعُ السَّوَارِي فِي الصَّيْرِ السَّارِي (٤٨٢)

---

(٢) المفصل في تاريخ العرب د. جواد على ج ١ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨

وراجع التاريخ العربي القديم ديتلف نيلسون ص ١٣٨

(٣) النار في التحليل النفسي جاستون بشلار ص ١٣ .

(٤) ديوان عنترة بن شداد ص ١٥ .

(٥) ديوان أوس بن حجر ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٦) شرح ديوان كعب بن زهير ص ٣٠ .

وعند هرم الغنوى السيف يلمع كتلماع الغمام وهو البرق : فيقول :

وَأَبْيَضَ صَارِمٌ " شَفَّتْ إِلَيْهِ حُسْبِيئُهُ كَتَّلَمَاعِ الْغَمَامِ (٤٨٣)

ووصف السيف بالبرق في الشعر لا يمر علينا بدون تدبير ما للبرق لدى الجاهليين من مكانة تبعث على التأمل، فالبرق رسول الخير والغيث، وإشارة الأمن والخصب، وكان الشعراء يبيتون له يترقبونه ويقفون له فوق الجبال، ويأرقون لتأخره، وعند مجيئه تهل به البشرى بميلاد جديد تزدهر به الحياة وتثمر، إذن لا ينتهي بنا التفسير عند إدراك العلاقة بين لمعان السيف وضوء البرق، ولكن الأمر أبعد من ذلك، فالعلاقة أسطورية فهم يستبشرون بوصف السيف بالبرق كما يستبشرون بظهور البرق نفسه .

والرمح أيضاً لم تخطئه صور النار لدى الشعراء الجاهليين، فهو كالنار أو

كنبراس التهامي أو تخالة بالليل لها أو كالنجوم والشهب في الليل الأسود :

فعند الخنساء تصف الرمح عند رثاء صخر قائلة :

عارض سَحْمَاءَ رُدَيْدِيَّةَ كَالنَّارِ فِيهَا آلَةٌ مَاضِيَةٌ (٤٨٤)

وعند عنتره بن شداد الرمح كالنار في الليل الأسود :

وَمُطَّرُ الكُؤُوبِ أَحْضُ صَدْقُ تَخَالُ سِنَانَهُ بِاللَّيْلِ تَارًا (٤٨٥)

ويصف عنتره الرمح أيضاً بالنار التي لا تخمد فيقول :

---

(١) كتاب الوحيات " الحماسة الصغرى " لأبي تمام ص ١٠٧

(٢) ديوان الخنساء ص ١١١

(٣) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنمري ج ٢ ص ١٣٤

وَتُوْفَةٌ مَجْهُوَلَةٌ قَدْ حُضِنَتْهَا      بِسِنَانِ رُوحِ نَارٍ لَمْ تَحْمَدِ (٤٨٦)

وهو كسراج الحداد " النهامي عند النابغة الذبياني :

وَأَسْمَرَ مارن يَلْتاحُ فِيهِ      سِنَانٌ مِثْلُ نَبْرَاسِ التَّهَامِي (٤٨٧)

والرماح كاللهب عند قيس بن الخطيم:

غودر عند المكرِّ سيدهم      فيه سنان تخاله لَهَبًا (٤٨٨)

وعند عبيد بن الأبرص كأنه اللهب الشاعل (٤٨٩) وكأنه لهبان جمر عند رجل من بني عبد

قيس (٤٩٠) وهى كنجوم الليل الأسود في وضوح ضوئها عند عنتره بن شداد (٤٩١)

وكانه شهاب يبرق عنده وأيضا يبرق في ظلمة الليل (٤٩٢) ويلمع أيضا في رجل المصاب

كلمع الشهاب (٤٩٣) .

ولعلنا نلمح أن صور الرمح تقترب في تشبيهاتها وملامحها من صور السهم

والسيف في أركان هذه التشبيهات وطريقة عرضها ، مما يشير إلى أن المسألة ليست وجود

وجوه شبه مباشرة، كاللمعان والبريق والسرعة والقتل فحسب بل، الأمر يتعدى ذلك كله إلى

العلاقة الأسطورية بين النار والحرب من خلال أدواتها، فصورة النار تتكرر في صورة الحرب

(٤) ديوان عنتره بن شداد ص ٥٦ .

(٥) ديوان النابغة الذبياني ص ١٣٤ .

(١) ديوان قيس بن الخطيم ص ١٣٥

(٢) مختارات شعراء العرب تحقيق د. نعمان طه ٣٨٩

(٣) وراجع ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٢٥

(٤) المفضليات للمفضل الضبي ص ٦٦

(٤) ديوان عنتره بن شداد ص ٥٧ .

(٥) نفسه ص ٣٦

(٦) نفسه ص ١٣

لتكشف لنا النقاب عن الأصول الميثولوجية لفكرة النار الأم الشريرة الشمطاء المتجسدة في الحرب لدى الإنسان العربي القديم، أو النجدة التي تنقذ الأحلاف والبطون من ظلمة العار والهزيمة فهي تشفى الغل وترد الثأر وتذهب الغيظ .

وترد صورة النار في أجزاء أخرى من لوحة الحرب ، فتظهر النار في حلق المغافر للفرسان، وينعكس ضوء السهام على الدرع كأشعة الشمس ، وكأن الشاعر الجاهلي لا يرى في الحرب إلا ناراً متأججة في حريق هائل شمل كل أركان اللوحة التي يرسمها للحرب، ولا يستنكف الشاعر من إدخال النار في أي جزء من مشهد الحرب .  
فالنار في حلق المغامر عند الخرنق بنت بدر:

سَمِعَتْ بِنُؤْأَسَدَ الصِّيَاحِ فَزَدَهَا      عِنْدَ اللَّقَاءِ مَعَ النَّفَّارِ نِفَارًا

وَرَأَتْ فَوَارِسَ مِنْ صَلِيبَةٍ وَائِلَ      صُبْرًا إِذَا نَقَعَ السَّنَابِكُ ثَارًا

بِيضًا يُحْزِنُ الْعِظَامَ كَأَمَّا      يُؤَمِّدُنَ فِي حَلْقِ الْمَغَاغِرِ تَارًا (٤٩٤)

وكان الجنود هنا ألبستهم الخرنق حلقاً من نار في مغافرهـم ، وكأنها تـمائم يحتمون بها بشكل طقوسى لا بد من استخدامها أو ذكرها في معرض الحديث عن الحرب عند الجاهليين .

وهذه التـمائم، وإن لم تظهر في حلق المغافر تظهر على القوانس منيرة ملتبهة تبرق فوق الغرر كأنها فوق ربا مرتفعة ، يقول عبيد بن الأبرص :

---

(٧) ديوان الخرنق بنت بدر بن هفان تحقيق د. حسين نصار طبعة دار الكتب مصر ١٩٦٩ ص ٣٣ ، ٣٤

بَلْ لَا مَحَالَةَ مِنْ لِقَاءِ فَوَارِسٍ      كَرَمَ مَتَى يُدْعَوُا لِرَيْعٍ يَرَكَّبُوا  
شَمَّ كَانَ سَنَا " الْقَوَانِسِ " فَوَقَّهْمُ      تَارَّ عَلَى شَرْفِ الْيَفَاعِ ثَلْهَبٌ (٤٩٥)

ويقول المرقش الأكبر :

بِأَنَّ بَنِي الرَّحْمِ سَارُوا مَعًا      بِجَيْشِ كَضْوَةِ نُجُومِ السَّحَرِ  
فَمَا شَعَرَ الْحَيُّ حَتَّى رَأَوْا      بَرِيْقَ الْقَوَانِسِ فَوْقَ الْعُرْرِ (٤٩٦)

والبيض كالنجوم عند الأعشى فوق الفرسان فيقول :

أَدَاقُوهُمْ كَأَسَا مِنْ الْمَوْتِ مَرَّةً      وَقَدْ بَدَحَتْ فُرْسَانَهُمْ وَأَدَلَّتْ  
سَوَائِعُهُمْ بِيضَ حِفَافٍ وَمَوَقَّهْمُ      مِنْ الْبَيْضِ أَمْثَالُ النُّجُومِ  
اسْتَقَلَّتِ (٤٩٧)

وهي شهب عند السموأل من الزهو واللمعان :

وَالسَّمْرُ مَطْرِرَةٌ مُتَقَفَّةٌ      وَالْبَيْضُ تَرْهَى تَحَالَهَا شُهْبَا (٤٩٨)

وتظهر " الدرعي " أيضاً عند أوس وكأنها مرآة تنعكس عليها صور السهام كأنها قرين الشمس أو أشعة الشمس وهي تصادف طلقاً ، من النجم كما يشير د . علي البطل . ( ٤٩٩ )

(١) ديوان عبيد بن الأبرص دار صادر بيروت د . ت ص ٣٣

وانظر مختارات بن الشجري تحقيق د . نعمان طه وروايتها اليفاع

(٢) شعراء النصرانية قبل الإسلام لويس شيخو ، شعر المرقش الأكبر ص ٢٨٥

(٣) ديوان الأعشى ص ٣٤

(٤) ديوان السموأل ص ٧٧

(٥) الصورة في الشعر العربي د . علي البطل ص ١٦٤

وراجع ديوان أوس بن حجر ص ٨٤ .

وتظهر الدرّع عاكسة لصور ضوئية ولو خيالية إلا أنها تعطى واقعا للحرب ، لا تترك فيه صورة النار . وقد تمددت هذه الصورة في عصور الشعر التالية بعد الإسلام ، وإن كانت قد فقدت كثيراً من مضمونها الأسطوري مما استنزف بكارتها يقول ابن قلاس :

فَابَعَتْ بَدْرُوعٍ كَجَلْدِ الصَّلِّ يَصْحَبُهَا      مُهْنَدُ كَلِسَانَ الصَّارِمِ الدُّكْرِ

وَجَنَّةٌ شَبِهَتْ فِيهَا كَوَاكِبَهَا      شَكْلُ الثُّرَيَّا بَدَّتْ فِي دَائِرَةِ الْقَمَرِ (٥٠٠)

من هذا العرض نستطيع القول بأن النار قد تمثلت في أدوات الحرب التي جسدها من قبل ، لتمثل فعل أمان وطمأنينة لمن يحمل هذا السلاح الذي يرهب العدو وهو يصفه بالنار في شكل دعائي في ذات الوقت ليوفر له أسباب الأمن ، ويقيه شر الحرب المدمرة ، ويحوطه بسياج من السلام المنعكس عن قوة حربه وسلاحه المستمدة من النار التي شكلت صور ذلك السلاح في شعره .

وصورة النار وخيول الحرب قد تناولها البحث في معرض حديثه عن نار الحرب واستخدام صور النار في وصف أدوات الحرب ، واستعرض أنواع السلاح من سيف ورمح وسهم ودرع ، وقد ظهرت صور النار بارزة في رسم الشعراء ووصفهم لهذه الأسلحة من مختلف جوانبها وهنا يتناول البحث الخيل كأداة من أدوات الحرب عند العرب في عصر ما قبل الإسلام ، وليست أداة عادية بل تعد من أهم أدوات الحرب وأقواها، لدرجة أن حبها والاعتزاز والاهتمام بها قد ملأ على العربي حياته فكان الرجل يشبع فرسه ويبيت

(١) راجع غرائب التشبيهات في عجائب التشبيهات لعلي بن ظافر المصري تحقيق د. محمد زغلول سلام ، د.

مصطفى الصاوي الجويني دار المعارف مصر ١٩٨٣ ص ١٩٥ .

جائعا وكان الرجل يُعير أخاه على هزل فرسه؛ وذلك لأن لهم فيها عزٌ ومنعة ، وعلى ظهورها يخوضون الوقائع والحرب .

فهي عدتهم عند الغارة والغزى والحرب ، وكانوا يرسلونها على الطريدة وفى السباق (٥٠١) وعلل البعض اهتمام العربي بالخيول بجوار الإبل ، فافتخر بنسبها ؛ لأنها وسيلة رحلته وعونه في غزى؛ وهربه وعلى تحقيق الانتصار يتميز الجواد بالسرعة الفائقة (٥٠٢) لذا امتلأ الشعر الجاهلي بصور الخيول ، وقد استخدم الشاعر مواد كثيرة ومتاز حمة لرسم صورة الفرس شملت ، والظلي، والنعام، والدئب، والثعلب، والصخر، والمطر، والجبل، والحرارة ، والمرجل (٥٠٣) لذا صورها الشاعر وأبرزها ضخمة الجسم صلبة البنيان متينة العضلات، في منتهى السرعة عند الجري لا يفتر نشاطها (٥٠٤) .

وأخذت عليه نفسه من خلال شغفه بوصفها وحبها لمواصفات بعينها يريدتها متوفرة في خيله ؛ وحتى تشبع حاجاته النفسية فيها ، وهى استقاء الشعور بالقوة والقدرة على مواجهة تحديات عصر؛ فاعتنى العربي بالفرس اى اعتناء حتى أخذ عليه خياله وملا نفسه إعجابا ، ومضى مع كل عضو من أعضائه واصفا " مصورا" حتى أنه في النهاية جمع في حصانة حيوانات عديدة بل عدة موجودات في الأحياء والجماد وكان يخلق لهذا الوجود صورة ينفرد بها ، ويجمع له صفات القوة والكمال فيقول امرؤ القيس:

(٢) الشعر الجاهلي خصائصه وفتونه د. يحيى الجابورى مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٣ ص ٨٦

(١) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي د. منذر الحبورى ص ٤٧

وراجع الصورة في الشعر العربي د. على البطل ص ١٢٦

(٢) شعر الطبيعة في الأدب العربي د. سيد نوفل دار المعارف مصر ١٩٧٨ ص ٣٨

(٣) الأمير الجاهلي امرؤ القيس الكندي د. على الجندي دار الفكر العربي مصر ١٩٦٨ ص ٢٣٥

وراجع الطبيعية في الشعر الجاهلي د. نوري حمودى القيسي مكتبة النهضة العلمية بيروت

١٩٨٣ ص ١١٠

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكِنَاتِهَا  
بِمُنْجَرٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

على العقب جِيَّاش كَأَنَّ اهْتِرْمَهُ  
إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيَّةٌ عَلَى مِرْجَلِ (٥٠٥)

وقد أرجع د. مصطفى ناصف هذه العناية بوصف الفرس إلى باعث واحد ، هو الرغبة في الشباب والحياة الدافقة . والشباب من حيث هو طاقة إبداعية ليس حلا لمشكلات شخصية في حياة الشاعر نفسه وإنما هو أسلوب لتغيير حياة الناس (٥٠٦) مثييراً في موضع آخر، إلى أن الفرس - وبخاصة فرس امرئ القيس - صورة أخرى للإنسان المتمرد الثائر ، وعاد قائلاً : إن الشاعر الجاهلي يبدو وهو يقسم بالخيال والقسم عبارة عن التجاء الإنسان إلى مصادر القوة ليحتمي بها ، ويؤكد صلته بعالمها وانتماءه إليها، فكانت الخيل توصف في الشعر الجاهلي بأنها عاديّات تضح بالغبار وتغير في الصباح الباكر (٥٠٧) وقد أثار

القرآن الكريم هذا المعنى ، وهو يقسم للعرب بهذا الكائن المهيمن على خيالهم وفكرهم ، وقد عرض القرآن أيضاً لاهتمام النبي سليمان عليه السلام وقصته مع الخيل " الصافنات الجياد" وتناول المفسرون المسلمون وصف هذه الجياد بشكل تدخل فيه الأسطورة (٥٠٨)

(٤) الصورة في الشعر العربي د. علي البطل وراجع شرح المعطيات السبع للزوزني ص ٢٧

(٥) قراءة ثانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٨٨

(٦) دراسة الأدب العربي د. مصطفى ناصف ص ٢٠٠

(١) " ضبح الخيل " : وهو صوت نفسها . والضبح يقترب من منال النار، ويؤكدها " الموريات" أي بأقلامها إذا جرت " قنحاً " بحوافرها بأرض حجارة راجع اللسان دء ص ٢٥٤٦ ، ٥٤٧٢ وراجع تفسير الجلالين ص ٥١٧ ، وابن كثير دء ص ٥٤٩ ، والقرطبي دء ١٠ ص ٧٢٤٧ ، والفخر الرازي مجلد ٦٦ دء ٣٢ ص ٤٣ ، ٦٤ .

• وهنا يعود بنا البحث – بعد اقترب الدكتور ناصف من المعول النفسي والفلسفي لوصف الخيل وإشارات المفسرين المسلمين – إلى الأصول الدينية لصورة الفرس في الفكر العربي •

وهل كان السبب وراء اهتمام العربي بالخيال سبب برجماتي ينتهي عند

المنفعة الحياتية؟؟

وتحتاج الإجابة عن هذا السؤال رجوعاً إلى كتب التاريخ والدين والأساطير القديمة ، حتى نضع أيدينا على هذه الأصول وعلاقتها بصور الفرس المقترنة بصورة النار في الشعر الجاهلي • فقد ورد كثير من الأخبار تشير إلى مكانة الخيل الأسطورية من خلال الممارسات ، فقد عقر العرب على قبور موتاهم من الأشراف الخيل وكانوا يلطخونها بدمائها (٥٠٩) وقد ارتبطت صورة الفرس في السماء بالمطر والماء فمن صور الكواكب التي على هيئة الفرس وجدنا " اسم " الدلو " و " سيد المطر" (٥١٠) فاتخذ الفرس رمزاً للخير والسعادة وأمل المستقبل ، وذكر القزويني طقوس الاستمطار بالفرس عند الصينيين إذ كانوا يجتمعون في سني القحط ويلقون فرسا في غدير عندهم ، والناس يقفون على أطرافه كلما أراد الفرس الخروج من الماء منعه ، ومادام الفرس في الماء يأتيهم المطر ، فإذا أمطراً قدر كفايتهم وامتلاً الغدير أخرجوا الفرس وذبحوه على قلة الجبل وتركوه تأكله الطير (٥١١) •

---

(٢) قالوا الجياد ذات أجنحة – وهذا من الأساطير راجع ابن كثير ح ٤ ص ٣٣

القرطبي ح ٨ ص ٥٦٣٦ ز " وباقي التفاسير قالت هي " الفرس تقوم على ثلاث أرجل ٠٠ "

(٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي د. أحمد الحوفي ص ٤٦٢

(٤) عبقرية العربية في رؤية الإنسان والحيوان والسماء والكواكب د. لطفى عبد البديع

مكتبة النهضة المصرية ط١ مصر ١٩٧٦ ص ٢١٦

وأثار البلاد وأخبار العباد لذكرياً بن أحمد القزويني دار صادر بيروت ١٩٦٠ ص ٥٤

ويشير ديتلف نيلسون إلى إنابة الحصان عن الإله الشمس في بلاد العرب الجنوبية (٥١٢) وقد أورد د. جواد على هذه العلاقة بين تماثيل الخيل والإله الشمس "ذت بعدن" (٥١٣) كما ذكر أيضاً "الاسيزين" وعبادتهم الخيل في البحرين (٥١٤)، وهكذا يبدو أن صورة الفرس قد ارتبطت بالفكر الديني الجاهلي .

فبجانب صورة الفرس الأرضية ، توجد صورة الفرس السماوية ولهذا حظيت الخيل باهتمام شديد وعناية فائقة من أجل ذلك كان العربي يشبع فرسه ويجوع عياله ، وكان من العار بيع الفرس لأي سبب وكان يمثل بيع الكرامة والشرف والعزة ، وكان مقترنا بزواج الأم من غير الأب وإنجابها من غيره، ويرد ذلك عند الأسعر الجعفي عندما عيّر أخوته قائلاً :

بَاعُوا جَوَادَهُمْ لِئَسْمَنَ أُمَّهُمُ      وَكَيْ يَعُوذَ عَلَيَّ فِرَاشَهُمْ فَئِي

وهذا الأسعر قد عد الخيل أكثر حصناً من جدران المنازل بالقرى : قائلاً (٥١٥)

وَلَقَدْ عَلِمْتُ عَلَى تَجَشُّمِي الرِّدَى      أَنَّ الْحُصُونَ الْحَيْلُ لَا مَدْرُ الْقَرَى

وهي عنده عز ظاهر تزيل الغمة وتكشف ظلام الليل قائلاً :

إِنِّي رَأَيْتَ الْحَيْلَ عَزَّ ظَاهِرًا      تُنْجِي مِنَ الْعُمَى وَيَكْشِفْنَ الرِّدَى (٥١٦)

---

(١) التاريخ العربي القديم ديلف نيلسن ترجمة فؤاد حسنين ص ٢٢٠

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ح٦ ص ١٦٩ د. جواد على

(٣) نفسه ح٦ ص ٦١ ، ٦٩٤

(٤) الاصمعيات لأبي سعيد الأصمعي ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢

وراجع كتاب الوحشيات "الحماسة الصغرى لأبي تمام" ص ٤٤

(٥) راجع قراءة ثانية لشعرنا القديم د. مصطفى ناصف ص ٨٥

وراجع الجمهرة لأبي زيد القرشي بيت بشر بن أبي خازم ص ٤٠١

(٦) راجع قراءة ثانية لشعرنا القديم ص ٩١

هذه المكانة الرفيعة التي اكتسبتها الخيل في حياة العرب ، ما نالتها إلا لمشاركتها لهم غمار حربهم ، فلم يقتصر الأمر على عد بيعها عارا أو أنها حصون أو أنها عز ظاهرة ، بل وصل إلى عدها آلهة تضىء للناس السبيل .

ومتى ؟ حينما يسيل الدم على نحوها في المعارك فيولد السلام والعز من خلال هذا المخاض الذي مثل حلم هذه الولادة (٥١٧)

ويظهر الفرس عند العرب أمام الجيش يلمع مبشرا بالنصر ويرد ذلك في قول الأعشى :

كَأَنَّهُ بَعْدَ صِدْقِ النَّاسِ أَنْفُسَهُمْ      بِالْيَأْسِ يَلْمَعُ مِنْ قَدَامِهِ الْبِشْرُ

لا يعجل القَوْمَ أَنْ تُعْلِيَ مِرَاجِلُهُمْ      وَيَدِلُّجُ اللَّيْلِ حَتَّى يَفْسَحَ الْبَصَرَ (٥١٨)

وهذا الفرس المذكور لامع المنظر ، مطلق كريم مبشر ، وقال المبرد في أمالي الشريف والخزنة : لانعلم بيتا في يمن النقيبة ، وبركة المطلع أبرع من هذا البيت (٥١٩).

والفرس في الحرب شهاب يستضاء به كالقمر في الليلة المظلمة ولا تخفى

مكانة القمر الدينية عند العرب قبل الإسلام ، فكان عند عرب الجنوب هادياً للناس سميراً لرجال القوافل ، وهو الرب القديم للكعبة وهو الإله القمري " هبل " (٥٢٠) ومن أسمائه عند عرب الجنوب : ( ود ) وعند المعنيين ( المقه ) وعند السبئيين و( عم ) عند قتبان ، وسين في

---

(١) الأصمعيات ص ٩١ (٢) السابق ص ٩١ الهامش

(٣) المفصل في تاريخ العرب د جواد على ح ٦ ص ٥٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، وراجع تاريخ الشعوب الإسلامية بركلمان ص ٢٦ .

(٤) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص ١٩٤

حُضِرَ موت كما في بابل (٥٢١) . ووصفه ابن الكلبي في صورة الصنم "ود" في شكل رجل (٥٢٢) وذكر الفخر الرازي بأنه الإله (ود) أيضاً في تفسير سورة نوح (٥٢٣) يقول امرؤ القيس :

الخَيْرُ مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَمَا غَرَبَتْ مُطَلَّبُ بِنَوَاحِي الْخَيْلِ مَعْصُوبٍ (٥٢٤)

وهذا البيت في زيادات الطوسي ويشك في صحة روايته ، وليس هذا موضع تحقيق ولكن يهمننا دلالة التفاؤل بالخيال في الفكر العربي وهذا التفاؤل والاستبشار والتقديس ، الذي نالته الخيل من خلال مشاركتها للعربي في ساح القتال .

وصور الشعر الجاهلي تدعم كل ما ذكر من مكانة للخيال في الخيال العربي كأداة حرب والتي استخدمت النار بشكل فعال في رسم صورتها ووصفها وصفا " دقيقاً " يرصد كل معالم جسمها وحركتها وانفعالاتها في الميدان وأيضاً الصور الشعرية تستند على هذه الأصول لتثبيت أنها - الصورة الشعرية - ليست كلاماً مرصوفاً ، أو أنماطاً تقليدية ، وإنما وراء هذه الصور دلالات دينية عميقة في القدم . واستمدت عمقها من مكانة النار في الخيال الشعبي العربي مما جعلها تظهر بهذا الكم من التكرار في تراث الجاهليين الشعري ، فيوصف الفرس حيناً بالنار المخرمة وكالمرجل يغلى في اهترزمه عند الجري ، والأرض تحت قدميه متقدة من سرعة جريه ولساقه الهوب ، ويطير الشرر من إحمائه ، وتدخل النار أيضاً في وصف لونه

(٥) الأبنام لابن الكلبي تحقيق د. أحمد كمال زكي الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ٥٦

(٦) الفخر الرازي " مفاتيح الغيب " مجلد ١٥ - ٣٠ ص ١٤٤

(٧) ديوان امرؤ القيس الكندي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٢٥ من الزيادات "

للطوسي "

: فتخيل الشاعر في غرته سراجاً " منيراً ، وكأن عنقه أوقدت فيه النار ، وقد استخدم الشاعر التشبيه المقلوب فوصف لون اللهب وكأنه ناصية الحصان الأشقر .

كما شبه الفرس بالبرق في سرعته وإمضائه ، واستخدم الفرس أيضاً للتعبير عن جوار المعركة الملتهب كأنه حريق يخرج الحصان منه مغطى بالدخان كأصابع المقرر الذي وضع يده على النار فأصابها دخان غير لونها ، ويظهر سنا النار على أعرافه ، ولجامه كأنه بين عرفج ملتهب ، كل هذه الصور للفرس تجعلنا نستوحي ما كان للنار وعلاقتها بالخيال من مكانة في نفس العربي كجزء لا يتجزأ من علاقة النار بسلاح الحرب . وتلمس كيف جسد العربي نار الحرب بشكلها الشرير المخيف لتصبح لصالحه فتهيئ له الأمان ويرسلها كلعنة على عدوه في نار السلاح كمنار حرب ثم استبشر واحتفل بها في وجه فرسه وعرفه ، وعلى شعره، وتحت قدمه ، وأصبحت ظاهرة لا ينبغي إهمال الدراسة لها ، فالنمر بن توابل يغير " بصهبي " وهي ملتهبة قائلاً :

لَقَدْ غَدَوْتُ بِصُهْبِي وَهِيَ مُلْهَبَةٌ      إِلَهَائُهَا كَضْرَامِ النَّارِ فِي الشَّيْحِ (٥٢٥)

"وصهبي " اسم فرس له وهو يرى فيها عند جريه بها في غدوة للحرب كأنها ملتهبة وليس أي لهب ، إنه لهب مثل لهب النار حينما تضرم في الشيخ فلها لهب شديد وسريع . وهذا يعكس ما في نفس راكب هذه الفرس من إلحاح وإشباع لرغبة شديدة في القتال ، واستعجال اللقاء فكأن الفرس تحته نار تتأجج متمثلة في ذبذبته فوق ظهرها .

(١) ديوان النمر بن توابل مطبعة المعارف بغداد سنة ١٩٦٩ صنعه د. نوري القبور ص ٥٠

ولا ننسى أن الصهبة التي اشتق منها اسم الحصان درجة من درجات الصفرة وهى لون النار أي أن الفرس يحمل صفة النار واسمها •

وعند أوس بن حجر جرى الفرس يحدث صوت "هزيم" كصوت الميسم المحمى " الإبرة " في الوبر فيقول :

نَجَاكَ جَيْاشٌ هَزِيمٌ كَمَا      أَحْمَيْتَ وَسِ الوَبْرِ الْمَيْسَمَا (٥٢٦)

وهذا الميسم حينما يكون محميا ويوضع في الصوف يكون له صوت لسع الصوف هذا الصوت تمثله الشاعر في هزيم فرسه وهو يجرى للمعركة ، وعند سحيم الفرس مرجل بلوك اللجام فيقول :

ضَوَا مُرْقَدَ شَنْهُنَّ الوَجِيفُ      يُثْرِنَ العَجَاجَةَ دُونِي ضِعَافَا

تَقَدَّمْتُهُنَّ عَلَى مِرْجَلٍ      بُلُوكَ اللِّجَامِ إِذَا مَا اسْتَهَافَا (٥٢٧)

والمرجل هو القدر الذي يغلى فيه الماء أو الشئ الذى يطبخ ويطهى وله اهترز وتذبذب ، وهذه الصورة يستوحياها الشاعر في هزت فرسه التي يستعذبها وتشبع فيه والرغبة في الانتقام متصورا صورة المرجل وشدة حرارته وله على أيضا" كغلي المرجل يتخيله امرؤ القيس في اهترم فرسه فيقول :

عَلَى الزَيْلِ جَيْاشٌ كَأَنَّ اهْتِرْمَهُ      إِذَا جَاشَ فِيهِ حَمِيَّةٌ عَلَى مِرْجَلٍ (٥٢٨)

والأرض الرميقة عنده أيضا تتحرق تحت قدم هذا الفرس قائلاً :

---

١- ديوان أوس بن حجر ص ١١٤ " جياش " : شديد الجري " هزيم " : شديد الصوت  
٢- ديوان سحيم عبد بني الحساس تحقيق د. عبد العزيز الميمنى الدار القومية للطباعة والنشر مصر ١٩٦٥ ص ٤٦  
٣- شرح المعطيات السبع للزورنى ص ٢٧  
٤- ديوان امرؤ القيس الكندي ص ٢٢٥ •

إِذَا تَبَصَّرَهَا الرَّأُوْنَ مُقْبِلَةً

لَأَحْتَّ لَهُمْ غُرَّةً مِنْهَا وَتَحْدِيبُ

رِقَاقُهَا ضَرْمٌ وَجَرِيهَا جَنْمٌ

وَاحْمُهَا زَيْمٌ وَالْبَطْنُ مَقْبُوبٌ (٥٢٩)

والساق نفسها لها لهب عنده فيقول :

فَللسَّاقِ الْهُوبُ وَالسُّوْطُ دَرَّةٌ

وَاللرَّجْرُ مِنْهُ رَجْعٌ أَهْوَجَ مُنْعَبِ

تَرَى الْفَارَ فِيْ مُسْتَنْقِعِ الْقَاعِ لَاحِيًا

عَلَى جُدِّ الصَّحْرَاءِ مِنْ شَدِّ مُلْهَبِ (٥٣٠)

ونفس الصورة عند طرفه أيضاً الذي يقول :

فَهِيَ تَرْنَى فَإِذَا مَا أَلْهَبَتْ

طَارَ مِنْ إِحْمَائِهَا شَدُّ الْأَزْرِ (٥٣١)

وإذا تركنا صوت اهتزاز الفرس وإلهاب جريه منتقلين إلى لونه ففرته بيضاء كأنها سراج عند النمر بن تولب :

جَمُومِ الشَّدِّ سَائِلَةٌ الذِّتَابَى

تُخَالُ بَيَاضَ غُرَّتِهَا سِرَاجًا (٥٣٢)

وعند امرئ القيس تظهر خلفية لصورة النار أو أثرها بمعنى أقرب في لون عنق الفرس كأنه أضرمت فيه نار فيقول :

وَسَالِفَةَ كَسْحُوْقِ اللَّبَا

نِ أَضْرَمَ فِيهِ الْغَوَى السَّعْرُ (٥٣٣)

(١) ديوان امرئ القيس الكندي ص ٥١

(٢) ديوان طرفه دار صادر بيروت ٢٠٠٤ ص ٥٨

(٣) ديوان النمر بن تولب ص ٤٨

(٤) ديوان امرئ القيس الكندي ص ١٦٥

وتتعانق صورة الخيل مع صورة النار بشكل جدلي وتتبادلان المواضع في عملية التشبيه ، فثُشِبَ الخيل بالنار في صفرتها ولونها ، وتشبه النار بالحصان الأشقر عند أوس ، وهذا قلب في التشبيه ويفيد المبالغة من الوجهة البلاغية (٥٣٤) وإذا تعمقنا الصورة نجد بعداً أسطوريا فالشاعر من لأوعية ومن خلال الأفق الروحي الأسطوري لا يفاضل بأولويات ، فالحصان رمز لآلهة نارية، والنار رمز للحصان وهذا في إمكان الرئی الأسطورية التي تذوب عندها حدود المادة ولوازم المنطق . فيقول أوس:

إِنْ كَانَ ظَلِي فِي ابْنِ هِنْدٍ صَادِقًا      لَمْ يَحْفُوهَا فِي السَّقَاءِ الْأَوْفَرِ

حَتَّى تَلَفَ نَخِيلُهُمْ وَزَرَعَهُمْ      لَهَبٌ كَنَاصِيَةِ الْحِصَانِ الْأَشْقَرِ (٥٣٥)

والأسعر الجعفي يصور الخيل وهي خارجة من الحرب عابسة كأنها أصابع من كان يعاني البرد الشديد، وجلس موجهها يده إلى النار بشكل غير واع فاسودت من دخان النار دون ما شعور منه من شدة ما يعانيه من البرد ، فكانت أصابعه شديدة السواد .

هكذا كانت الخيول عابسة عند الأسعر الجعفي في المعركة يقول الأسعر:

يَخْرُجْنَ مِنْ حَلَلِ الْعُبَارِ عَوَاسًا      كَأَصَابِعِ الْمَقْرِيرِ أَقْعَى فَأَصْطَلَى (٥٣٦)

وهذه الصورة يرسم الشاعر فيها خلفية لها توحى بمنظر الحرب متأججا وكأنه حريق ذو ضرام ولهب ودخان لدرجة أن الخيول اسودت ألوانها في هذا الحريق من شدة انكبابها واضطرابها إلى الاستمرار فيه بدون وعي، كما يضطر المقرير للالقعاء والانكباب على النار

(٥) راجع تقييم مدرسة عبيد الشعر الجاهلية في ضوء نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني

جميل عبد المجيد مواضع متفرقة

(٦) ديوان أوس بن حجر ص ٤٨ .

(١) كتاب الوحشيات لأبي تمام ص ٤٢ ، وراجع الأصمعيات ص ١٤٢

رغم حرارتها ودخانها فلا يشعر بها وذلك دليل على شدة ما يعانیه خارجها، فالحرب رغم قسوتها إلا أن المحارب وفرسه يضطران إلى معاشتها وما فيها من شدة دوافعها، فدوافع الحرب أشد منها بذاتها، وهذا تصوير بالسالب حيث استخدم الشاعر صورة المقرّر للتعبير عن النار كآثارها على الخيول في الحرب، فالبرد عكس النار فالاستخدام للبرد في رسم صورة النار له دلالة فنية رائعة .

وطفيل أيضا يستخدم خلفية ترسم صورة الحرب من خلال الضوء الساقط على أعراف " الخيول " واللجام كأنه ضوء منعكس لعرفج ملتهب ، والحرب لديه نار عرفج ملتهبة ، وهذه صورة غير مباشرة للحرب تظهر في خلفية صورة الفرس فيقول :

كَأَنَّ عَلَى أَعْرَافِهِ وَلِجَامِهِ سَنَا دَرِمٍ عَنِ عَرَفِجٍ مُثْلَهُبٍ (٥٣٧)

فالأعراف واللجام مضيئة لامعة في عيني الشاعر عند القتال ، وهذه صورة تناظر صورة بشر بن أبي خازم التي رأى فيها الخيل مشعلة النحور من الدم وأي دم ؟ دم القتال (٥٣٨) وهذا الضوء على عرف الفرس ولجامه ليس ضوءا ذاتيا هنا ، وإنما هو شعاع ساقط عن مصدر نار براق شديدة كنار العرفج الملتهب وهذه أيضا صورة غير مباشرة استخدمها الشاعر وجعل الخيل فيها أو أعرافها كالمراة تنعكس عليها هذه الصورة .

ولعل هذا العرض لتناول الشعراء الجاهليين للخيول في شعرهم واستخدامهم لها تجسيد صورة نار الحرب التي تمثلوها في غرتها ( كالسراج ) وفى لونها

(٢) ديوان طفيل الغنوى طبعة لندن ١٩٢٧ ص ١٠

(٣) راجع الجمهرة لأبي زيد القرشي بيت بشر بن أبي خازم ص ٤٠١

( كالضوء - كالنار ) - وفى جريها : " تتوقد الأرض " وفى ساقها ( ألهوب ) واهتزّ مها ( كغلي الرجل ) ، وغيرها من الصور الواردة في استخداماتهم يكون حدد لنا رؤية العربي لنار الحرب من خلال الخيول .

والواضح أن الشاعر العربي رغم خوفه من نار الحرب وتخويفه منها وتهديد أعدائه بها ألا انه يفتخر بخوضها ويصف بها سلاحه في شكل دعائي ظهر فيه الشاعر الجاهلي كأنه يستعرض قوة سلاحه باستخدام مواصفات نارية يرهب بها عدوه ، وهذا معلوم حتى اليوم فيخاف العدو فلا يدخل معه في حرب فيأتي السلام الناتج عن قوة السلاح<sup>(٥٣٩)</sup>، وهو ما يُسمى حديثًا بقوة الردع، في الاستراتيجيات الحربية المعاصرة .

كذلك لا يستبعد تفاؤل الشاعر العربي بصور النار المقدسة في وصف سلاحه للتبرك بها ورجاء النصر من خلال اللجوء إليها في نعت سلاحه وخيله بها .

فأصبح ذكرها عند الحديث عن السلاح أو الخيل لازمة فنية تكررت حتى كانت كالتعويذة أو الطقس الممارس لديهم لاستجلاب رضاها ونصرتها ، وهذه الرؤية لن تخفى إذا تابعنا الظاهرة بقراءة متأنية .

وتصر صورة النار على الظهور في آثار الحرب بعد انتهائها فتظهر في آثارها في مواضع الطعن ، وعلى جثث القتلى المائلين كالجذوع المحترقة والضرب نفسه تتطاير خلاله الشرر ، والهلاك يكون كالغلي في القدر ، وبعد انتهائها يصبح أثرها في المجتمع كأثر الكي بالنار في لدعة وشكله ، وهذا المعنى يتوافق والمعاني السابقة التي جسدها الحرب لصورة النار ، كل هذه الآثار المثارة في البحث لصور نار الحرب كقيلة بأن تترك أثرا كأثر النار ، فيصبح علامة شؤم وموضع ألم يتعاقب ذكره بين الأجيال من طول مكثه وشدة وطئه .

---

(١) راجع كتاب الصورة في الشعر العربي د. البطل ص ١٦١

فالطعن كالهباب الحريق المضرم عند ما تفترش القناعند بشر بن أبي خازم فيقول :

قُلْ لِلْمَثَلِمْ وَابِنِ هِنْدٍ بَعْدَهُ      إِنَّ كُنْتَ رَائِمَ عَزْرًا فَاسْتَقْدِمِ

تَحْبُو الْكَتَيْبَةَ حِينَ يَقْتَرِشَ الْقَنَا      طَعْنَا كَالْهَابِ الْحَرِيقِ الْمُضْرَمِ

تَلَقَّ الَّذِي لَأَقَى الْعَدُوَّ وَتَصْطَبِحُ      كَأَسَا صَبَابِهَا كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ (٥٤٠)

وهو مثل حش النار في الحطب الجاف وتكون فيه النار شديدة عند أوس :

لَقُونَا فَضْمُوا جَانِنَنَا بِصَادِقٍ      مِّنَ الطَّعْنِ حَشَّ النَّارِ فِي الْيَبْسِ

وَمَا دَخَلْنَا نَحْتَقِيءَ رِمَاحِهِمْ      حَبَطْتُ بِكَفَيَّ أَطْلُبُ الْأَرْضَ بِاللَّمْسِ (٥٤١)

والضرب مثل اللذع بالنار في عروق عنق وصدر السمؤال من قوله:

فَنَشَكَ أَوْدَاجَهُ وَالصَّدْرُ فِي مَضَضٍ      عَلَيْهِ مُنْطَوِيًا كَاللَّذَعِ بِالنَّارِ (٥٤٢)

وهنا يمنح الأعشى السمؤال الذي تحمل هذا الضرب الذي يبلغ في الألم اللذع بالنار ، وعنتره

أيضا يفتخر بدخوله الحرب والطنع في صدره، مثل شرار النار يلتهب : فيقول

وَالْخَيْلُ تَسْهَدُ أَنِّي لَا أَكْفُكُفُهَا      وَالطَّعْنُ مِثْلُ شَرَارِ النَّارِ يَلْتَهَبُ (٥٤٣)

(٢) راجع الجمهرة لأبي زيد القرشي قصيدة بشر بن أبي خازم ص ٢٥

ورواها صاحب المفضليات ص ٣٤٩ لسان بن أبي حارثة المرسي

(١) ديوان أوس بن حجر ص ٥١ (٢) ديوان الأعشى ٠ دار صادر ص ٧٠

(٣) ديوان عنتره بن شداد ص ١١

(٤) شعراء النصرانية قبل الإسلام شعر الحارث بن عباد ص ٢٧٥

والموت الذي يعقب الطعن • والضرب في المعركة له حر كحر الحريق عند الحارث بن  
عبادة قائلاً :

لَقَدْ صَبَحْنَاهُمْ بِالْبَيْضِ صَافِيَةً      عِنْدَ اللَّقَاءِ وَحُرِّ الْمَوْتِ يَتَّقِدُ (٥٤٤)

ويتركهم الموت أيضا كالجنوع المائلة من الحريق ، فأثر الحرب على القتلى كأثر الحريق  
على الجنوع فتقول الخرنق :

وَبَعْدُ بَنِي صَبِيحَةَ حَوْلِ بَشَرٍ      كَمَا مَالَ الْجُدُوعُ مِنَ الْحَرِيقِ (٥٤٥)

والضرب أيضا يشبه النار في تطاير الشرر، وهذا الاستخدام لصور النار للتعبير عن شدة  
الضرب ومراة أثره فيقول طرفة :

وَوَوَّوْا وَعَطَوْنَا الَّذِي سئِلُوا      مِنْ بَعْدِ مَوْتِ سَاقِطِ أُذْرُهُ

إِنَّا لَنَكْسُوهُمْ وَإِنْ كَرِهُوا      ضَرْبًا يَطِيرُ خَالَاهُ شَرُّرُ (٥٤٦)

ولعل من قبيل التوحد بين النار والدم وإطلاق كلمة شعاع على الدم المتطاير عند الطعن  
(٥٤٧) وعند أمية بن أسكر الكنانى :

ت      قَوْمِي اللَّذُوبِ عَكَاطِ طَيْرُوا شَرُّرًا      مِنْ رُؤْسِ قَوْمِكَ ضَرْبًا بِالْمَصَاقِيلِ (٥٤٨)

---

(٥) ديوان شعر الخرنق بنت بدر ص ٢٧

(٦) ديوان طرفة ص ٦٢ •

(١) راجع لسان العرب مادة "شعع"

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ج ١ ص ٢٦٩

وترد صورة المقتول في أوصاف المحروق أو الذي أنضح في قدر وهذه صورة تعكس لنا صورة حريق القتيل في وهج الحرب أو الفتن، فتقول الخرنق لعبد عمر حين وشى بأخيها عند عمر بن هند فقتله .

أَرَى عَبْدَ عَمْرٍ قَدْ أَشَاطَ ابْنَ عَمِّهِ وَأَنْضَجُهُ فِي غَلِيٍّ قَدْرٍ وَمَا يَدْرِي (٥٤٩)

كأنها ترى في القتل حرقا وغليا في المراحل والقذور ، وهذه صورة تجسدها الحرب للنار الشريرة التي تمثل الفتنة والدمار .

هذه صورة النار ذات الوجه الشرير في الشعر الجاهلي ، والذي جسده الحرب في لوحها الشعرية بتكرار لافت أخذ شكل النمط عند كثير من الشعراء ، وفي أغلب القصائد حتى تكاد الحرب لا تذكر إلا وتبرز صورة النار وضوءها يبرز من لوحها .

أما في التعبير عنها كأم مشنومة ذات وجه كالح قبيح يجر عليهم الدمار والفناء ، أو هي مثلها تماما في أفعالها وصفاتها فهي : تشب ، وتهب ، وتستعر ، وتضرم وتبوخ وتخبو ، وتنطفئ ، ولها صفاتها فهي حارقة مستعرة – ملتهبة شديدة الحرارة لها لذع، ولافة كاوية . . . إلخ ، وهي تشتعل بذاتها ، ويشعلها الإنسان انتقاما لنفسه ولعشيرته .

هذه الصورة الشريرة للنار يرى فيها الإنسان الجاهلي كرجل حرب شيئا من الخير ، ودفع الشر رغم أنه حذر منها بالشكل ، والمواصفات سالفة الإشارة إليها ، إلا أنها عنده شفاء وإطفاء للغل وميلاد للكرامة ، واسترداد للشرف والأمن .

---

(٣) ديوان شعر الخرنق بنت بدر ص ٤٠

فهي منجية وفعل حياة) وقد تمثل ذلك في وصف سلاحه بها مفتخرا بهذا السلاح ، ومهددا لخصومه من حرقه وتدميره؛ لهم به بشكل حرب دعائية ، أيضا كأنه يمارس تراتيل وتعاويد يستبشر بذكرها ووصف سلاحه بها ، تصور النار كصورة الآلهة القوية المنتقمة في الفكر السامي القديم ، ورغم هذا تظهر صورة النار في مخلفات الحرب متمثلة في آثارها التي تشبه آثار النار كالكي واللدغ ، فهي ذات وصمة لا يسهل الخلاص من آلامها ، وتشويبهها ، كأنه لوحة الحرب تعود قائلة : إن النار ذات لعنات يستمر أثرها رغم مضيها ، فهي شريرة ، وهذه الصورة لها أصولها في الفكر الإنساني القديم عموما عن النار ، والفكر السامي والعربي بشكل خاص فالنار شريرة يخشاها الإنسان ويرهبها.